زكريا تامر

النمور في اليوم العاشر



دار الآداب

الطبعة الثانية
تموز (يوليو) ١٩٨١

الاعداء

١ ــ البداية

نفخ الشرطي في صفارته ، فبزغت توا شمس الصباح، واضاءت شوارع المدينة بنور اصفر كخشب مشنقة عجوز .

وعندئذ أفاق الناس من نومهم آسفين عابسي الوجوه .

٢ ــ السماء المفقودة

حط عصفوران على غصن شجرة من الاشجار المنتصبة على جانبي احد الشوارع ، ولم يغردا مرحبين بشمس الصباح انما تبادلا النظرات الوجلة الحائرة ، وقال احدهما للاخر : « أين نطير ؟ » .

« ــ سماؤنا احتلتها الطائرات » .

« ــ لم يبق لنا سوى سماء الاقفاص » .

« ــ سنفقد أجنحتنا » .

« ــ سننسى الغناء » .

وحدق العصفوران الى طـــائرة سوداء تعبر السماء بسرعة خاطفة ثم تبادلا النظرات الوجلة ، وبدت لهما المدينة فما شرها ذا انياب ، فابتلعا حبوبا ميتة ، ثم سقطا ميتيــن على رصيف صلب من اسمنت .

٣ ــ الاسرى

يمشي رجلان عجوزان على رصيف شارع بخطا وئيدة، ويتحدثان بكآبـة :

« ــ هذا الزمان آخر زمـان » .

« ــ الحال من سيء الى اسوأ » .

« ــ حان وقت كتابة العريضة » .

« ــ اي عريضة ؟ » .

« ــ العريضة التي ينبغي رفعها الى الله عزوجل » .

« ــ وماذا سنكتب في تلك العريضة ؟ » .

« ــ سنكتب ما يلي : نحن الموقعين ادناه نلتمس من سيد الكون ان يرسل الينا جيشا من ملائكتـه مسلحا باحدث الاسلحة على ان يقيم على حدود البــلاد ويقاتل الاعداء ولا يعاملنا كاسرى » .

« ــ وماذا نفعل في حال عدم تنفيذ طلبنا ؟ » .

« ــ نرفع عريضة ثانية نطلب فيها الموافقة على اعفائنـا من الصلوات الخمس » .

« ــ واذا لم يوافق ؟ » .

« ــ بل سيوافق ايضا على اعفائنا مــن الصوم . انـه رؤوف رحيم » .

٤ ــ الثأر

ثمة عدد من الاولاد مجتمعون في باحـة المدرسـة ، يلعبون بحماسة لعبة جديدة .

« ــ انا طرزان » .

« ــ انا عنتر » .

« ــ انا مليونير » .

« ــ انا مخترع القنبلة الذرية » .

« ــ انا شرطـي » .

« ــ انا مخترع الطائرات » .

فانقضّ الاولاد عـلى مخترع الطـائرات ، وراحوا يصفعونه ويلكمونـه ويركلونـه بينمـا كـان يصرخ معـولا مستغيثا .

٥ ــ رجال

« ... الحمد لله الذي خلقنا رجالا نركض ساعة الخطـر الى امام كالريح ، فننجو ولا نهلك .

والحمد لله الذي لم يخلقنا نساء تقعد فـي البيـوت فتحرقنا قنابل الاعـداء وكأننا الجوارب العتيقة .

الحمد لله الذي لا يحمد سواه .. » .

٦ ــ الخطـر

سئل فلكي عما سيأتي به المستقبـل ، فقال دونمـا تردد : « سيهلك الكبار . سيهلك الصغار . ستهلك القطط والطيور والازهار . ستحرق البيوت والكتب والرايـات . ستحرق مقاعد المدارس والصور التذكارية . سيمحو النابالم

الضحكات واللغة العربية والسنابل . ستهدم المستشفيات . ستهدم المصانع . ستهدم الحدائق . ستسير النساء في الشوارع دون ملاءات » .

ولما نشرت تلك النبوءة مفصلة في كتاب ، اتفق المخلصون للوطن على استنكار ما سيحل بالمرأة ، وتنادوا الى التضحية بالنفس والنفيس لدرء ذلك الخطر البشع .

٧ ـ الجنة

كان الرجال الموشكون على اداء الصلاة ، متحلقين بلهفة حول شيخ المسجد ، وقد سأل احد الرجال الشيخ بصوت متهدج : « اتوجد يا شيخنا طائرات في الجنة ؟»

فقال الشيخ : « لا وجود للطائرات في الجنة ؟ »

فتنهد الرجال بارتياح ، وقالوا بفرح :«الحمد لله ».

٨ ـ خطبة

« .. والله ما كان سكوتنا على الاعداء عن ضعف انما كان اباء وشمما وترفعا وثقة بالنفس .

قالوا : نريد بترولكم . قلنا : خذوا بترولنا ، فنحن احفاد حاتم الطائي . قالوا : اعلنوا حربا شعواء على الافكار المستوردة . فقلنا : نحن اهل الكر والفر ، ونصبنا المشانق وشيدنا السجون .

ارادوا الاستيلاء على مدينة ، فاعطيناهم مدنا ومدنا كي نبرهن على اننا لا نبالي بهم ، فاذا كانوا يملكون الطائرات والقنابل ، فنحن نملك الخلق القويم والمبادىء السماوية ، وشتان بين ما يملكون وما نملك ، فنحن

الاقوياء لاننا مسلحون بالروح والحق لا بالمادة الزائلة والباطل الزهوق ... » .

٩ ـ وسام المنقذ

ظفرت اللغة العربية بارفع وسام في الوطن لمساهمتها في تحويل هزيمة حربية الى نصر ، فهي اسمت الحرب انسحابا ، واسمت الانسحاب صمودا ، واسمت الصمود بطولة ، واسمت البطولة نصرا .

ولقد انتصرنا على الاعداء ، وسننتصر ايضا على طابورهم الخامس الذي يتجاهل وحدة الطاقات القتالية للغة العربية .

١٠ ـ لماذا ؟

سأل التلميذ معلمه : « ما الفارق بين الحيوان والانسان ؟ » .

فقال المعلم للتلميذ : « الحيوان لا يتكلم والانسان يتكلم » .

لم يكذب المعلم ، ونحن العاملين في الاذاعة والتلفزيون والصحف خير من تكلم .

فالى خالق السموات والارض الذي منحنا الالسنة ، نقدم الشكر والامتنان ، ففوائد الكلام لا تحصى ، ويوم حاربنا الاعداء قام كلامنا بدور مشرف ، فجابه الاعداء بشجاعة ، واسقط طائراتهم ودمر دباباتهم واباد جنودهم .

فلماذا حدث ما حدث وحلت بنا الهزيمة مع ان كلامنا جاهد جهاد الابطال ؟

١١ – محو الفقراء

جاع المواطن سليمان القاسم ، فأكل جرائد زاخرة بمقالات تمتدح نظام الحكم ، وتعدد محاسنه المتجلية في محو الفقر .

ولما شبع ، شكر الله رازق العباد ، وآمن ايمانا عميقا بما قالته الجرائد .

١٢ – برنامج اذاعي

مذيع : « ما اسمك يا أخ » .

شاب : « عبدالمنعم الحلبي » .

مذيع : « متزوج ؟ » .

شاب : « عازب » .

مذيع : « ماذا تشتغل ؟ » .

شاب : « انا بلا عمل » .

مذيع : « ولماذا لا تعمل ؟ أانت غني أم تكره العمل ؟ » .

شاب : « لست غنيا ولا اكره العمل . اني ابحث عن عمل منذ سنوات » .

مذيع : « ما هي الامنية التي تتوق الى تحقيقها ؟ »

شاب : « ان اموت الآن » .

مذيع : « ايها الاعزاء المستمعون . لا ريب في ان الاخ عبدالمنعم الحلبي وطني غيور ، فهو كما تلاحظون حين يتمنى الموت يرغب في معاقبة نفسه لانه لا يساهم في بناء مجتمعنا المتطور السائر الى الامام » .

١٣ – الانشاء

سأل طفل صغير امه : « ما الفائدة من العينين ؟ » .

فتجهم وجه الام ، وقالت وهي تنظر الى طفلها بريبة وحذر : « العينان خلقتا لتنظرا باحترام وحب الى صور زعماء البلاد » .

قال الطفل : « والاذنان ؟ »

قالت الام وقد تزايد خوفها : «الاذنان تسمعان الاوامر الرسمية والخطب السياسية ».

قال الطفل : « واللسان ؟ ».

قالت الام : « اللسان لا فائدة له سوى المساعدة على ابتلاع الطعام بعد أن تمضغه الاضراس والاسنان » .

فابتسم الطفل ابتسامة غامضة بينما كانت الام ترتعد خاضعة لرعب قاس .

١٤ – البطل

مذيعة تلفزيونية : « هل تسمح يا استاذ خالد بن الوليد بأن تشرح للاخوة المشاهدين كيف صرت بطلا شهيرا ؟ ».

خالد بن الوليد : « لقد صرت بطلا بفضل ملح اندروس الفوار ، ففي كل صباح كنت اشرب كوب ماء بعد ان اذيب فيه ملعقتين من ملح اندروس .. فملح اندروس كما يعلم القاصي والداني ينشط الكبد وينظف الامعاء ويقوي الجسم وينعش العقل » .

١٥ – الحب

« فتش كما تشاء يا سيدي الشرطي ، فامرأتي ليست مطبعة تطبع المنشورات السياسية الهدامة ، وضحكتها ليست مؤامرة استعمارية ، ولا يمكن ان تفسر على انها نقد

مباشر لنظام الحكم خاصة واني قبل ان احبها ، سألتها عن رأيها بنظام الحكم السائد حاليا في البلاد ، فأجابت فورا بأنها تحبه حبا جما ، وعندئذ فقط سمحت لقلبي بأن يعشق تلك المواطنة الواعية .

ولما قبلتها لاول مرة ارتعشنا معا مبتهجين وكأننا كنا نصفق ونهتف في مسيرة مؤيدة لكفاح الشعوب .

فهل تريد يا سيدي الشرطي اخلاصا للوطن اكثر من اخلاصنا ؟! » .

١٦ ـ الجريمة

انا مواطن لا اختلف عن غيري من المواطنين المعوزين، ثيابي كثيابهم ، ومعدتي كمعدهم ، واخاف كما يخافون .

وعندما منحتني الدولة شرف العمل في مصنع تملكه، لم ادرك قيمة ما منحت ، وطالبت بعد اشهر قليلة بزيادة اجري متجاهلا ما تتطلبه المعركة ضد الاعداء من اموال ، ومخالفا الاوامر الرسمية بوجوب التقشف ، ولم انتبه الى مدى الضرر الذي سينزل بالوطن اذا ما لبي طلبي ، فلو كنت قد حصلت على زيادة اجري ، فلسوف ينقص مال الدولة، واذا نقص مال الدولة ، فسينقص ما يدفع ثمنا للويسكي وثياب النساء والسيارات والابنية ، واذا قل الويسكي وزعلت النساء وغدت السيارات والابنية غير فخمة ، فمن المؤكد تاريخيا وموضوعيا ان فرح المسؤولين عن البلاد سيتضاءل ، واذا تضاءل فرح المسؤولين فستصبح معنوياتهم خائرة ، وتصير بياناتهم وتصريحاتهم وخطبهم فاترة مملة لا ترعب الاعداء .. ولذا فحين طالبت بزيادة اجري، خدمت

الاعداء وشاركت في انجاح حربهم النفسية .

اذن فلأعاقب شر عقاب .

ملاحظة : « هذا الوعي المباغت الذي امتلكته لا علاقة له البتة باقتيادي الى مخفر الشرطة ، اذ لم اسأل هناك الا عن اقتراحاتي الرامية الى تطوير الانتاج » .

١٧ ـ اولو الامر

اتكأ الشرطي بمرفقيه على سور النهر ، وصاح بصوت خشن صارم : « ايها النهر » .

« ـ من يناديني ؟ » .

« ـ انا الذي أناديك » .

« ـ من أنت ؟ » .

« ـ انا شرطي » .

فارتجفت مياه النهر ، واضاف الشرطي قائلا : « اذا اردت الا تطرد وتحيا بقية عمرك في منفى ، فعليك ان تتعهد خطيا بعدم التدخل في الشؤون السياسية » .

« ـ ولكن الوطن وطني » .

قال الشرطي بلهجة جافة : « هل تريد أن تسجن ؟ » .

فبادر النهر الى تنفيذ رغبة الشرطي ، معلنا الولاء والطاعة لاولي الامر .

١٨ ـ في سبيل وطن يسر السياح

الى من يهمه الامر :

نحن المخلوقات البشرية الرثة التي تقطن في الازقة الضيقة المظلمة ، نطالب بما يلي :

١ ـ ان يسمح لنا بالسير عراة توفيرا لثمن الثياب ،ولكي يتاح لاجسادنا الحصول على النور والهواء .

٢ ـ ان تقوم المستشفيات الحكومية مجانا باستئصال معدنا التي تسبب لحياتنا اضطرابا لا مبرر وطنيا له .

٣ ـ ان تقطع رؤوسنا بعد ان ثبت لنا ان ما يجعل المواطن خائنا هو العين التي تبصر والاذن التي تسمع واللسان الذي يتكلم والعقل الذي يفكر والعقل الذي لا يفكر .

١٩ ـ اصفاد الموتى

يروي ان رجلا عشق امراة ، ولكنها ابت الزواج منه، فقال لها متسائلا بدهشة :« كيف ترفضين الزواج مني مع انك تقولين لي دائما بانك تحبينني ؟» .

قالت المراة : « انا احبك ولكنك من اسرة لا تدفن الموتى من اجدادها ، فكيف تريد مني ان احيا معك في بيت غرفه مليئة بالجثث ؟ » .

ففكر الرجل هنيهات ثم قال : « انت محقة فالموتى لهم المقابر لا منازل الاحياء » .

وبادر الى حفر حفرة عميقة كي يدفن فيها جثث اجداده ، غير ان اشباح الاجداد والاعداء اوثقته بالاصفاد ودفنته في الحفرة التي سبق أن حفرها .

لم تبك المراة ، انما شحذت سيف رجلها ، وانتظرت عودته دونما يأس كي يحارب الاجداد والاعداء .

٢٠ ـ الشموس والاقمار

الجبان الحي خير من الشجاع الميت ، فقبل اليد

القوية وادع في السر ان تكسر ، واذا اردت مطلبا من كلب فقل له : مولاي الكلب .

كن أول من يطيع وآخر من يعصي ، فلا راي لمن لا يطاع ، واذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، والقناعة كنز لا يفنى ،والحسود لا يسود ، فاستقم كما امرت واطع اولي الامر ، وكل من سار على الدرب وصل .

٢١ ـ الصغار يضحكون

شاهد الملك يوما عددا من الاولاد يلعبون في احد الحقول ويضحكون بمرح ، فسألهم :« لماذا تضحكون ؟» .

قال احد الاولاد : « انا اضحك لان السماء زرقاء ».

وقال ولد ثان : « وانا اضحك لان الاشجار خضراء ».

وقال ولد ثالث: « وانا اضحك لان العصافير تطير ».

فنظر الملك الى السماء والعصافير والاشجار . فألفاها لا تضحك ، فاقتنع بان ضحكات الاولاد لا هدف لها سوى الهزء بهيبته الملكية ، فعاد الى قصره ، واصدر امرا بمنع اهل مملكته من الضحك ، فاطاع الناس الكبار السن، وكفوا عن الضحك ، غير ان الاولاد الصغار لم يبالوا بأمر الملك وظلوا يضحكون لان الاشجار خضراء والسماء زرقاء والعصافير تطير .

٢٢ ـ الرشوة

عقد رجال الحارة اجتماعا تحدثوا فيه عن امور الدين والدنيا ، فسارع رجل ذو لحية بيضاء يقول لهم بلهجة مؤنبة :« لم يهزمنا الاعداءفي الحرب الا لاننا ابتعدنا عن

دينا الحنيف ، واعلموا ان تلك الهزيمة عقاب وانذار ،عقاب لما ارتكبتم من ذنوب ، وانذار بمستقبل حافل بالويلات والكوارث » .

فصاح واحد من اهل الحارة: « ماذا نفعل ؟ ارشدنا » .

قال الرجل الملتحي : « عودوا الى دينكم نادمين تائبين طالبين الغفران وحسن الختام » .

قال رجل : « ولكنا نصلي ونصوم ولا نؤذي احدا ونذكر الله صباح مساء » .

قال الملتحي :« ما تفعلونه لا يكفي ،يجب ان تبنوا مسجدا تعلو فيه كلمة الله » .

« ــ ولكن بناء المسجد يكلف أموالا كثيرة ، ونحن فقراء » .

قال الملتحي بنزق : « الويل لكم ! أتعتذرون عن بناء المسجد متذرعين بحجج واهية ، بينما تنفقون ما تكسبون من اموال في سبيل حياة فانية ؟ بئس المصير لمن فضل الحياة الدنيا على رضى الله » .

فنكس الرجال رؤوسهم خجلين .

وجاع اهل الحارة زمنا طويلا ، ولكنهم بنوا مسجدا له مئذنة تشبه رمحا غاضبا يوشك ان يندفع عبر الفضاء ليثقب طائرات الاعداء .

٢٣ ــ التحقيق

قال المحقق لطفل في المهد : «اياك والكذب . قل كل ما تعرف عن رفاقك » .

لم يجب الطفل ، فاستاء المحقق ، وقال للطفل بلهجة حانقة : « اتجرؤ على رفض الكلام ؟» .

بكى الطفل ، فاستاء المحقق ، وامر باستدعاء رجاله ، فأقبلوا حالا حاملين السياط والليل الميت النجوم .

٢٤ ــ الوصية

كان الرجل الهرم الذي يحتضر ، يتحلق حوله العديد من ابنائه واحفاده الحزانى ، وقد تأمل بعينين مجهدتين وجوههم الصفراء وثيابهم المهترئة، وقال لهم بصوت خفيض مرتعش آسف : « سأموت دون ان اترك لكم ما ينفعكم ».

وهم بمتابعة كلامه ولكن اعياء حادا مباغتا داهمه وارغمه على السكوت ، فأغمض عينيه وهو يرتجف متلهفا الى ان يقول لابنائه واحفاده :« الحياة يا اولادي واحفادي غريبة، فافعلوا كل ما هو سيء مشين ، عيثوا فسادا في الارض . لا تقولوا الصدق ولو كانت انشوطة المشنقة تهم بحصد رؤوسكم . اكذبوا ، تملقوا الاثرياء وذوي المناصب ، تملقوا التافه والضحل والاجوف والمهرج فالمستقبل الوضاء لهم لا لغيرهم . صفقوا للوافد الجديد الصاعد واشتموا الراحل الآفل.اسكروا . لا تصلوا. لا تصوموا . لا تحسنوا الى احد . كونوا اليمين واليسار وكونوا الشرق والغرب . احتقروا الكتب فابتسامة مسؤول افضل من الف كتاب . حاربوا الضعيف المعوز ، وناموا اذلاء على اعتاب القوي القادر . امدحوا من لا يستحق المديح . صفقوا اعجابا بنباح الكلاب ، واقرعوا الطبول كي لا يسمع تغريد البلابل ».

وخضع الهرم المحتضر لحقد عاصف ، فحاول ان يصرخ

معلنا ما يرغب في قوله ، ولكن الموت اقبل في تلك اللحظة، فصمت المحتضر مفعما بالمرارة والاسف .

٢٥ ـ النهاية

قال المعلم لتلاميذه الصغار : « السنة كما اخبرتكم سابقا تتألف من اربعة فصول ، فما هي ؟ »

صاح التلاميذ : « الخريف » .

قال المعلم : « في الخريف تصفر اوراق الاشجار وتحرث الارض وتفد الغيوم » .

جاء الخريف ، واصفرت اوراق الاشجار ، ثم تساقطت لتغطي جثث من قتلوا في الحرب ولم يدفنوا في قبور .

صاح التلاميذ : « الشتاء » .

قال المعلم : « في الشتاء ، تهطل الامطار وتروي التراب » .

جاء الشتاء ، فاذا حطام طائراتنا ورجالها الموتى الابرياء بذور في التراب هطلت فوقها الامطار الغزيرة .

صاح التلاميذ : « الربيع » .

قال المعلم : « في الربيع يعم اللون الاخضر » .

جاء الربيع ، واكتست الارض بالعشب الاخضر والازهار ، ولكن الامهات والمدن ظلت مرتدية ثياب الحداد.

صاح التلاميذ : « الصيف » .

قال المعلم : « الصيف موسم الحصاد » .

جاء الصيف ، ولكن الارض لن تنبت سنابل قمح ،انما ستنبت طائرات جديدة ورجالا تواقين الى موت ثان .

٢٦ ـ النهاية

اغمد رجل نصل مديته حتى المقبض في التراب بحركة متشفية ثم الصق اذنيه بالارض ، وهتف بدهشة : « الارض تبكي » .

ثم الصق اذنه بالارض ثانية ، وصاح بصوت مثقل بالفرح : « لقد ماتت » .

وحين الصق اذنه بالارض مرة ثالثة ، لم يسمع سوى احذية الجنود تصك الارض برتابة .

يوسف .. يوسف الصغير الجميل الهالك

أمسك محمد بيده اليسرى بمرآة مستديرة ، ثم رسم بقطعة فحم شاربين على شفته العليا ، فأبصرت امه ما فعل ، وكانت جالسة في باحة البيت على كرسي خشبي واطيء وامامها طبق كبير مليء بالثياب والماء الحار ورغوة الصابون ، فصاحت بنزق : « ماذا تفعل ؟ » .

قال محمد : « صرت رجلا كبيرا » .

قالت الام : « الله لا يكبرك . وسخت وجهك . هيا اغسله » .

فقصد محمد بحرة الباحة ، ومسح وجهه بالماء ، فصار وجهه أسود ، فأطلقت الام صرخة غاضبة ، وغمست بحركة مفتاظة قطعة قماش بالماء ، وقالت لمحمد آمرة : « تعال » .

ظل محمد متجمدا في مكانه ، فأضافت الام قائلة : « ألم تسمع يا قرد ؟! » .

قال محمد : « ستضربينني » .

قالت الام : « لن أضربك » .

قال محمد : « احلفي بالله » .

قالت الام : « اذا لم تأت فورا نهضت وضربتك حتى تولول » .

دنا محمد من أمه بخطى مترددة ، فجذبته الام اليها . ومسحت وجهه بقطعة القماش المبتلة بالماء الحار والصابون ثم دفعته عنها وهي تقول : « هيا اذهب واقرأ دروسك » .

قال محمد بصوت محتج : « ولكن اليوم يوم عطلة » .

قالت الام : « اذن اقعد هادئا » .

وحاص محمد في الباحة ضجرا ، ثم دلف فجأة الى المطبخ ، وغاب فيه لحظات ثم خرج منه ضاحك الوجه حاملا صحنا نحاسيا وملعقة ، وراح يدق الملعقة على ظهر الصحن وهو يصيح : « يا دايم وحد الصايم » .

فصرخت الام : « يا قرد .. يا عفريت .. » .

فقاطعها محمد قائلا : « أنا مسحراتي » .

قالت الام : « هيا أخرج من البيت » .

قال محمد بلهجة متحدية : « واذا لم أخرج ، ماذا ستفعلين ؟ هل ستضربينني ؟ » .

وتقدم نحوها وهو يضيف قائلا : « اضربيني » .

قالت الام : « لن أضربك . الله سيضربك . اسمع . اذا لم تخرج الى الحارة فسأظل أولول حتى يأتي الجيران فأقول لهم اني جننت وأنت السبب » .

قال محمد : « وماذا أفعل في الحارة ؟ » .

قالت الام : « العب هناك كما يلعب غيرك من الاولاد » .

وغادر محمد البيت ، ومشى في الحارة ، مقطب

الجبين ، محملقا الى الارض ، واضعا يديه في جيبي بنطاله ، وسمع بغتة صوتا يناديه : « محمد » .

فالتفت نحو مصدر الصوت ، فألفى ولدا أسمر الوجه، يقف قبالة حائط أبيض ، ممسكا بيده قطعة فحم . فقال محمد وهو يدنو منه : « سليم يا مجنون .. ماذا تفعل ؟ » .

قال سليم : « سأرسم حمارا » .

قال محمد : « ارسم على حائط آخر » .

قال سليم : « هذا الحائط هو الحائط الابيض الوحيد في حارتنا » .

قال محمد : «اذا رسمت عليه فسينتفون شعرك شعرة شعرة » .

فضرب سليم بيده على اليتيه وقال : « لينتفوا شعر هذه » .

قال محمد : « استح » .

في تلك اللحظة فتح باب البيت ذي الحائط الابيض وخرج منه ولد وسيم الوجه ، ممشط الشعر ، انيق الثياب، وما أن أبصر محمدا وسليما حتى اقترب منهما ، وقال لهما متسائلا بعداء : « ماذا تفعلان هنا ؟ » .

قال محمد بلهجة ساخرة : « اهلا عدنان بك » .

وقال سليم : « كنا نريد أن نبول على حائطكم ، ولكننا الآن غيرنا رأينا وسنبول عليك » .

فاحمر وجه عدنان ، وقال : « سأخبر ابي بما قلت فيضربك أبوك » .

قال سليم وهو يهمّ بالهجوم على عدنان : « سأضربك واضرب عائلتك » .

فأمسك محمد بسليم وهو يقول : « ضرب البنات عيب »

فضحك سليم ، وقال لعدنان : « قل لي .. انت صبي ام بنت ؟! » .

فوضع محمد يده على كتف سليم ، وقال له : « اتركه ولنذهب » .

وهمّ محمد وسليم بالمسير . قال عدنان لهما بفضول : « الى اين ذاهبان ؟ » .

قال سليم : « الى جهنم . لماذا تسأل ؟ » .

قال محمد : « لعله يريد الذهاب معنا » .

قال عدنان : « قولا لي » .

قال سليم لمحمد : « قل له والا بكى » .

فكر محمد لحظات ثم قال : « سنذهب الى البساتين » .

قال سليم لعدنان : « ما رايك ؟ هل ستذهب معنا ؟ » .

قال محمد : « يذهب معنا ؟! انه لا يجرؤ على المشي معنا خطوة واحدة . ستضربه الماما . ابناء الاكابر يمشون مع ابناء الاكابر » .

قال عدنان : « وماذا ستفعلان في البساتين ؟ » .

قال محمد : « سنلعب » .

قال سليم : « وسنسرق التفاح والمشمش » .

قال محمد : « وسنسبح في النهر ونصطاد سمكا »

قال سليم : « وسنصطاد ضفادع » .

قال عدنان : « سأذهب معكما » .

فقال سليم لمحمد : « سمعت ما قاله ؟ قال انه يريد

الذهاب معنا ليسرق التفاح والمشمش مع ان الفواكه التي تدخل الى بيتهم كل يوم تكفي اهل الحارة جميعا » .

قال عدنان بلهجة رجاء : « خذاني معكما » .

قال محمد لسليم : « ما رأيك ؟ أنأخذه معنا ؟ » .

فقطب سليم جبهته ثم قال : « سنأخذه وأمرنا لله » .

واوشك محمد وسليم أن يسيرا ، ولكنهما توقفا لحظة تنبها الى ان عدنان ظل واقفا ، فقال له محمد متسائلا : « ما بك يا ولد ؟ غيرت رأيك ؟ » .

وقال سليم لمحمد : « اتركه . الماما لا تسمح له بالابتعاد خطوتين عن باب البيت » .

قال عدنان : « لا .. لا .. سأذهب معكما ولكنني سأدخل أولا الى البيت ولن اغيب الا لحظات ، وسأقول لامي اني ذاهب لزيارة بيت عمي » .

قال سليم : « اذن سننتظرك خارج الحارة عند باب الجامع » .

قال محمد : « انتبه . لن ننتظر كثيرا . اذا تأخرت فسنذهب وحدنا » .

قال عدنان وهو يهرع نحو باب بيته : « لن أتأخر » .

وسار سليم ومحمد مبتعدين عن الحارة ، ثم وقفا قبالة باب المسجد .

قال محمد : « لن يأتي » .

قال سليم : « طظ عليه اذا اتى وطظ عليه اذا لم يأت » .

ولم يطل انتظارهما ، اذ جاء عدنان بعد وقت قصير

وهو يهرول لاهثا مبتهج الوجه ، وقال : « لم اتأخر » .

قال سليم : « امش امش . الحكي سيتعبك » .

وسار الاولاد الثلاثة بخطا حثيثة قاصدين البساتين المحيطة بالمدينة . ولما بلغوها ، اطلق سليم صيحة مديدة مرحة وركض وهو يقول : « من يستطيع امساكي ؟ » .

فركض محمد وعدنان ، وحاولا امساكه ، ولكنه كان سريع الركض بارعا في المراوغة ، وفجأة ارتمى على عشب أخضر ، وقال لاهثا : « تعبت واستسلمت » .

وارتمى محمد قربه بينما ظل عدنان واقفا ، فقال له سليم : « تعال . لماذا أنت واقف ؟ » .

قال عدنان : « ستتوسخ ثيابي » .

قال محمد : « ولماذا الخوف ؟ أمك لن تغسلها . ستغسلها خادمتكم وعندكم صابون كثير » .

وما أن همّ عدنان بالاستلقاء على العشب حتى نهض سليم وأمسك بغصن شجرة مقطوع ملقى على الارض ، ولوّح به كسيف ، وقال : « من يبارزني ؟ » .

فبادر محمد وعدنان الى البحث عن غصن ، فعثر محمد على ما يبغي ، وشرع يبارز سليم بحماسة ، وصاح عدنان وهو يشير الى شجرة : « هذه شجرة تفاح » .

فكفّ سليم ومحمد عن التبارز ، وألقيا الغصنين ، وهرعا الى شجرة التفاح ، وراحا يقفزان محاولين قطف التفاح ، فتعالت صيحة غاضبة أطلقها صاحب البستان الذي اقبل نحو الاولاد الثلاثة راكضا وملوحا بعصاه مهددا .

صاح سليم : « اهربوا » .

وركض الاولاد بأقصى قوة . ولما ابتعدوا وقفوا لاهثين محمري الوجوه .

قال محمد : « لو امسكنا لاشبعنا ضربا » .

قال عدنان : « لو ضربني فسأقول لابي فيأتي ويضربه » .

قال سليم : « كنا نسرق » . .

قال عدنان : « ماما تقول ان السرقة عيب » .

فضحك سليم وعدنان ، ثم قال سليم وهو يتلمظ : « ولكن التفاح لذيذ الطعم » .

فقال سليم لمحمد وهو يشير الى عدنان : « من يسمعه يظن ان أهله يشترون التفاح من الصيدلية » .

ومشى محمد وسليم ، فتبعهما عدنان ، وبلغ الثلاثة ضفة نهر ، واختاروا بقعة معشوشبة تظللها اغصان شجرة هرمة .

وابتدأ سليم بخلع ثيابه بسرعة ، فقال عدنان مستغربا : « ماذا تفعل ؟ » .

ـ « سأسبح » .

وضحك عدنان فجأة ، وقال لمحمد وهو يشير الى سليم : « أنظر ، انظر الى قميصه » .

ـ « ما به ؟ » .

ـ « مهترىء ووسخ » .

فوجم محمد ، ثم بادر الى خلع ثيابه بحركات سريعة ، فبدا قميصه الداخلي مرقعا باهت اللون .

وقال سليم لعدنان : « ولماذا لا تخلع ثيابك مثلنا ؟ هل ستنزل الى النهر بثيابك ؟! » .

قال عدنان : « لا اريد النزول في النهر ، ماؤه وسخ » .

قال سليم : « أنت تكذب . أنت تحب النزول الى النهر ولكنك خائف » .

ووثب سليم الى النهر ، وشرع يسبح وهو يصيح صيحاتٍ قصيرة ، وتبعه محمد ، وطفق الاثنان يتراشقان بالماء ضاحكين بصخب .

وصاح محمد مخاطبا عدنان : « تعال واسبح معنا » .

ـ « انا لا أعرف السباحة » .

ـ « سنعلمك » .

قال سليم : « أنت بنت » .

قال محمد : « انه دجاجة » .

قال سليم : « انه يسبح في البانيو فقط » .

فاقترب عدنان من النهر ، فقال له محمد : « هيا تشجع . لا تخف . لن يأكلك النهر » .

قال سليم : « لن تصير رجلا ما دمت تخاف من ماء قليل » .

وخرج محمد وسليم من النهر يقطر منهما الماء وراحا ينطنطان .

وقال سليم لعدنان : « أما زلت خائفا ؟ » .

وقال محمد : « الامر بسيط . ارم بنفسك ثم حرك ذراعيك ورجليك تجد نفسك تطفو وتسبح أحسن منا . انظر » .

ورمى محمد بنفسه الى ماء النهر ، وطفق يسبح ، ثم غادر الماء ، وقال لعدنان : « أرأيت ؟ هيا افعل كما قلت لك »

قال سليم لمحمد : « اتركه . اني اقول لك انــه بنت فلا تصدق » .

وخلع عدنان ثيابه ، ودنا من النهر متوجسا ، فصفق محمد وسليم ، وصــــاح محمد : « هيا يا بطل .. ارنــا شجاعتك » .

فقال سليم لمحمد : « اتراهن ؟ انه لن يجرؤ على غمس أصابع قدميه في الماء » .

وفجأة قذف عدنان بجسده الى النهر ، وراح يضرب الماء بيديه ورجليه بحركات جنونية ، ثم صاح بذعر : « اني أغـــرق » .

فظل محمد وسليم يراقبانه وهما متجمدان في مكانهما بينما كان عدنان يغوص تارة ويطفو تارة اخرى ، ولا يكف عن الصياح مستنجدا ، وحمله ماء النهر بعيـدا وهو يقـــاوم ويولول .

وساد الصمت شيئا فشيئا ، وعندئذ ارتدى محمـد وسليم ثيابهما دون أن يتبادلا كلمـــة أو نظرة . ثم انحنى سليم ، وحمل ثياب عدنان ، وقذف بها الـى ماء النهر ، ثم انطلق الاثنان يمشيان بوجهين واجميـن وخطـى ثابتـة مبتعدين عن النهر .

الزهرة

كانت يدا خشنة نحيلة مدفـــونة في التراب . وقد تاقت الى الشمس والمطر والسماء الزرقاء والريح . فزحفت ببطء طوال أعوام متجهة الى أعلى . وتخضبت بدمهـــا النازف وعذبها طويلا ألم قاس ، لكنها لم تتخل عن محاولتها حتى تمكنت من أن تنبثق من التراب كانفجار صغير مباغت. وترنحت نباتا شاحبا غريبا ، منتشية بالضوء والهـــواء والاصوات ، متلهفة الى ما ينسيها ظلمة التراب ، وتلمست أصابعها المرتعدة سطح الارض ، وتجمدت لحظـــة أمسكت بزهرة ، وغمرها حنو عارم مبهم ، وعصف شوق في شرايينها مناديا نهدا كان اجمل وردة بيضاء ، وامتزج النداء بصرخة انطلقت يوما من حنجرة رجل تهاوى أرضـــا ملطخ الصدر والفم بالدم .

وركض نداء اليد وصرخة الرجل في شوارع صاخبة ، وفتشا البيوت بيتا بيتا ثم تلاشيا ذليلين .

وتذكرت اليد الخشنة النحيلة المراة التي تملك جسدا من نجوم بيضاء دائمة الارتعاش .

وضحكت المراة ، وهمست بمرح : « لنفعل ما نشاء وليفعل اهلي ما يشاؤون » .

وضحك الرجل وقال : « سنعيش كما نريد ولن نبالي بأحد » .

والتصق جسداهما عشبا اخضر ووردا أحمر ونارا ودماء ، ولكن السكاكين اقبلت . وحاول الرجل ان يحمي جسده بيديه الخشنتين النحيلتين ، غير ان السكاكين استمرت في مطاردته وطعنه حتى سقط كورقة شجرة يابسة ، ودفن في بستان اخضر ، وفني اللحم الممزق الدامي رويدا رويدا في التراب، ولكن اليد الخشنة النحيلة العاشقة بقيت حية .

ووهنت قوى اليد ، وأوشكت اصابعها ان تفلت الزهرة ، ولكنها تشبثت بها باصرار .

وجاء في تلك اللحظة خمسة رجال وبرفقتهم امرأة وبنت لا يتجاوز عمرها العاشرة ، وقعدوا على بساط بالقرب من اليد الخشنة النحيلة .

قالت المراة متصنعة التذمر : « انتم خمسة . ماذا سأفعل بكم ؟ ستتعبونني كثيرا » .

قال رجل : « ماذا تقترحين ؟ » .

قالت المراة : « ان تساعدني بنتي » .

قال الرجل : « لكنها صغيرة » .

فصاحت البنت بصوت رفيع حانق متحد : « هيا جربني وستجد اني افضل من امي وستدفع لي اكثر مما ستدفع لها » .

فارتعشت اليد الخشنة النحيلة ، وافلتت الزهرة ، وانسحبت هاربة الى ظلمة التراب .

في ليلة من الليالي

يجيء الليل كفناً اسود ، فيبتعد ابو حسن بخطى هارب عن حارته الخرساء ، وازقتها الملتوية المظلمة ، وناسها العجاف ، وبيوتها الرثة المتلاصقة ، ومقهاها الذي يشبه تابوتا مهترىء الخشب . وحين يبلغ الشوارع العريضة ، تبهره ضوضاؤها وسياراتها المسرعة وناسها المتأنقون وانوارها الساطعة المتعددة الالوان ، فيمشي بخطى ذاهلة متباطئة ، مشدود القامة ، مرفوع الراس ، ذا وجه متجعد ، شديد الزهو بشاربيه الكثين اللذين كانا يغريان عيونا كثيرة بالتحديق اليهما بفضول ودهشة . ايه ! انت أبو حسن . ويحق لك ان تنال الاعجاب والاحترام . انت خير الرجال . خنجرك البرق الذي يعقبه مطر من دم ، وقلبك فضة ، ويدك من صخر الجبال . انت رجل لا كبقية الرجال . تفرح فتصير بستانا اخضر . تغضب فيحمل الموت نعشا فارغا وينتظر أشلاء فريسة . تحب فتخلص . لا تغش ولا تكذب . لا تتملق ولا تنافق . الاعور أعور والاعمى أعمى . تضرب

فتدمي ولا تقتل . تعادي فيختفي من تعاديه . تصادق فتهب حتى روحك لمن صادقته . عمرك اكثر من اربعين سنة ولكنك حين تلتقي بجسد امراة تبقى في دمها حتى القبر . تشرب العرق وكأنه ماء ولا تسكر . تخوض مشاجرات تسيل فيها الدماء وكأنك تدخن سيجارة على ضفة نهر . يعلو صوتك الخشن بموال فتبكي الحجارة . انت الرجل الذي يكنّ له الرجال والنساء والاطفال في حارته المحبة والاجلال . اذا تشاجرت امراة مع زوجها لا تقصد بيت اهلها شاكية انما تلجأ اليك واثقة بأن ما لحق بها من ظلم سيزول لا محالة . يحبك الاطفال ويصرخون مستنجدين بك لحظة تضربهم أمهاتهم . وقطط الحارة ساعة تجوع تأتي اليك وهي تموء . واذا تخاصم صديقان فلا أحد غيرك يستطيع بكلمة ان يوقد من جديد ما انطفأ في قلبيهما من ود. والشاب اليتيم اذا رغب في الزواج من فتاة تصبح انت عائلته . كنت دائما تنصر الضعيف المظلوم ، وتجابه القوي الظالم غير هياب . ولم تعرف يوما أحنيت فيه راسك لهوان أو ذل .

ويبتسم أبو حسن ابتسامة مغتبطة متفاخرة بينما هو مستمر في سيره المتمهل على ارصفة مكتظة برجال لا شوارب لهم ، وبنساء يمشين بخطوات واثقة شامخات الرؤوس، معطرات ، انيقات ، جميلات كدمى غالية الثمن . انظر يا أبو حسن انظر . رجال كالنساء ونساء كالرجال . لا تعجب ولا تستنكر . هذه هي سنة الحياة ، فلا شيء يبقى ويدوم ، وكل زمان له رجاله ونساؤه .

ويلمح ابو حسن فتاتين في مقتبل العمر ، جميلتين اكثر من زهرة ياسمين في الصباح ، وكانتا ترنوان الى شاربيه الكثين بنظرات مستغربة ، فيتزايد اعتداده بشاربيه، وتلمسهما اصابع يده اليمنى بحركة مزهوة .

وتهامست الفتاتان ثم ضحكتا ضحكا ساخرا ، ففوجىء ابو حسن ، وارتبك ، وحث خطاه مبتعدا عن الفتاتين ، وسلك طريقا فرعية تضيئها مصابيح كهربائية ، شاحبة النور ، متدلية من اعمدة خشبية تتناثر متباعدة . انت ؟! انت ابو حسن ويسخر منك فتستحي كبنت ما باس فمها الا أمها ؟! آخ يا زمن .. انت كلب يعض صاحبه .

وتناهى الى سمع ابو حسن اغنية آتية من احدى البنايات من نافذة مفتوحة مضاءة ، فتوقف عن السير ، واستند الى جذع شجرة ، وكان المغني أجش الصوت ، واغنيته مبهمة الكلمات ، غير ان صوته كان كصرخة مخنوقة لطير فقد جناحيه بغتة وهوى في فراغ لا ارض له .

وتخيل ابو حسن الفتاتين وقد اختطفتا وترقصان مرعوبتين عاريتين في غرفة يحتشد فيها عدد من رجال ذوي شوارب كثة وأعين مفترسة ، ثم تذكر امراة جميلة من حارته ، وكانت تقول له : « تزوجني وسأكون خادمتك » ولكن ولولة انبثقت ذات صباح من بيتها ، جللت الحارة وسكانها بلون أسود . ولم يمش أبو حسن وراء نعشها ، انما اختبأ في غرفته ، ودفن وجهه في الوسادة ، ولم يستطع أن يبكي ، ولكن صوته كان يتصاعد بين الحين والحين

أجش مبحوحا اكثر حزنا من بكاء الام التي فقدت ابنتها .

وتعالت صرخة استغاثة حادة من امراة ، وابصر ابو حسن رجلا يركض باتجاهه ، تتبعه صيحات تقول انه لص وتحث على امساكه .

ولما اقترب الرجل الهارب من أبو حسن ، حاول امساكه ، ولكنه زاغ ببراعة ، وافلت منه ، واستأنف ركضه السريع دون أن يبالي باسترداد ما سقط من يده .

وانحنى أبو حسن على الارض ، وتناول ما سقط من الهارب ، فاذا هو حقيبة يد نسائية ، فتأملها وهو يقول لنفسه بسخرية : « ماذا سيحكي اهل حارتي ان ابصروا أبو حسن يحمل ما تحمله النساء ؟! » .

واقبل الذين كانوا يطاردون الرجل الهارب ، وبرفقتهم شرطي بدين ، فقال لهم ابو حسن بلهجة اعتذار واسف : « اللعين كان كالزئبق وهرب مني » .

فصاحت امراة وهي تشير الى ابو حسن : « اقبضوا عليه . هو اختطف حقيبتي ، وها هي بيده » .

قال أبو حسن : « عيب يا امراة ! ما هذا الحكي ؟! » .

فانتزعت المراة الحقيبة من يده ، وصاحت : « انتبهوا. سيهرب » .

فسارع الشرطي البدين وعدد من الرجال الى امساكه، وقال له الشرطي : « هيا ، امش » .

قال أبو حسن متسائلا بدهشة : « الى أين ؟ » .

قال الشرطي : « الى اين ؟! الى المخفر طبعا . لعلك ظننت اننا سنأخذك الى كباريه ؟! » .

فحاول ابو حسن الكلام والاحتجاج ، ولكن شتائم كثيرة انهالت عليه ، فسكت ، وسار برفقة الشرطي يحيط به رجال ونساء واطفال ، فيتكلمون بأصوات عالية ، ويشيرون اليه قائلين انه لص .

ولم يستمر السير طويلا ، اذ كان مخفر الشرطة قريبا . واقتيد ابو حسن توا الى غرفة رئيس المخفر الذي كان شابا ذا وجه أبيض وسيم حليق وعينين صارمتين واجمتين ، ويجلس وراء طاولة على سطحها جرائد واوراق وتلفون .

وتقدم الشرطي من رئيس المخفر ، وشد قامته ، ورفع يده محييا ، ثم تكلم ملخصا ما جرى ، فقال ابو حسن مقاطعا : « كل ما يقوله غير صحيح » .

فقال رئيس المخفر لابو حسن : « اخرس . لا تتكلم . تتكلم فقط عندما آمرك بالكلام » .

وصاحت المراة صاحبة الحقيبة : « هو اختطف حقيبتي من يدي وهرب » .

وتلتها اصوات عديدة تؤيدها ، ويضيف اصحابها قائلين : « كلنا رأيناه ولحقنا به حتى قبضنا عليه » .

وقال الشرطي : « ضبطته يا سيدي والحقيبة بيده » .

ظل رئيس المخفر صامتا ، ووجه الى ابو حسن نظرة طويلة متفحصة ثم قال له بازدراء : « تفضل .. جاء الآن دورك . هيا اسمعنا فصاحتك . ما لك ؟! هل ابتلعت لسانك يا لص ؟ » .

قال ابو حسن : « أنا لست لصا » .

قال رئيس المخفر بحنق : « اذن من انت ؟ لعلك شيخ جامع ولا ندري ؟! » .

قال ابو حسن : « انا رجل .. والرجل لا يسرق امراة » .

فنهض رئيس المخفر عن كرسيه ، وترك طاولته ، ودنا من ابو حسن ، وقال له هازئا : « ما شاء الله ! أنت لص ، ولص وقح أيضا » .

قال ابو حسن : « انا لم اختطف الحقيبة . رايتها تقع من سارقها فالتقطتها » .

قال رئيس المخفر : « اسمع . الانكار هنا لن ينفعك . من الافضل لك ولنا ان تعترف بما فعلت والا جعلتك تتمنى لو ان أمك لم تلدك » .

فأمسك ابو حسن بأصابع يده اليسرى احد شاربيه ، وقال : « شاربي شارب امراة اذا كنت اكذب » .

قال رئيس المخفر : « تفو عليك وعلى شواربك . لا وقت لدي للقيل والقال . تكلم والا كسرت راسك » .

قال ابو حسن محمر الوجه : « لم يخلق بعد الشخص الذي يكسر راس ابو حسن . اسأل عني أهل حارتي فتعرف من هو ابو حسن » .

قال رئيس المخفر وقد ازداد غيظا : « يا كلب .. اذا لم تعترف سأضربك بالحذاء واضرب اهل حارتك » .

قال ابو حسن : « لا داعي الى التمادي في الكلام . كن رجلا ، والرجل يعرف قدر الرجال » .

فهز رئيس المخفر راسه ، وقال بصوت حاول أن يكون هادئا : « انت بالتأكيد بحاجة الى تربية وتأديب ، وقد وقعت في يد من يتقن التعامل مع أمثالك » .

والتفت الى الشرطي البدين ، وقال له آمرا بخشونة : « اذهب كالبرق واحضر مقصا » .

قال الشرطي : « أمرك سيدي » .

ثم غادر الغرفة بخطى سريعة. واتجه رئيس المخفر نحو طاولته ، وضغط باصبعه على زر جرس ثم وقف متصلب القامة مقطب الجبين حتى دخل الغرفة شرطي أصفر الوجه وقال بصوت جامد : « أمر سيدي » .

فقال رئيس المخفر وهو يشير الى المراة صاحبة الحقيبة والشهود : « خذهم وسجل اقوالهم » .

فنفذ امره توا ، وخوت الغرفة الا من رئيس المخفر وابو حسن ، وعندئذ قال ابو حسن بصوت متهدج : « انظر الي . هل يمكن أن اكون لصا يسرق امراة ؟! » .

لم يجب رئيس المخفر انما ازداد وجهه صرامة وامسك بسماعة الهاتف ، ورفعها ، وأدناها من فمه ، وتكلم بصوت خفيض ، ثم أعادها الى مكانها ، واسترخى على كرسيه صامتا يحدق بهزء ووعيد الى ابو حسن الذي كان يقف منفرج القدمين مضطربا حائرا .

وفتح باب الغرفة ، ودلف الى داخلها الشرطي البدين حاملا مقصا كبيرا ، ثم تبعه عدد من رجال الشرطة الذين نظروا توا الى ابو حسن نظرات كره واحتقار ، فنهض رئيس المخفر واقفا مبتهج الوجه ، وتناول المقص من الشرطي

البدين ، ثم قال لرجال الشرطة وهو يشير بالمقص الى ابو حسن : « امسكوا بهذا الكلب » .

فصاح أبو حسن : « أنا كلب يا نصف رجل ؟! خسئت »

وهجم على رئيس المخفر وهو يزعق بغضب ، غير ان رجال الشرطة امسكوا به ، فقاومهم محاولا الافلات من ايديهم ، فانهالت عليه صفعاتهم وركلاتهم ولكماتهم . كانوا يضربونه بشراسة وكراهية كأنه ذبح أمهاتهم ، وظلوا يضربونه حتى تلاشت مقاومته واستحال بين ايديهم الى جسم شبيه بقطعة قماش مهترئة ، وعندئذ قال رئيس المخفر لرجاله : « امسكوا به جيدا » .

وأضاف مخاطبا الشرطي البدين : « تحرك .. امسك براسه ، وان تحرك اقل حركة وضعت رجليك في الفلقة ».

فسارع الشرطي البدين الى الامساك بشعر ابو حسن، وشده الى الوراء شدا عنيفا ، فبات وجه ابو حسن فريسة عزلاء .

ابتسم رئيس المخفر ، واقترب من ابو حسن ويده تحمل المقص ، وقال له : « والآن ستدفع ثمن سبك وسترى ماذا يفعل نصف رجل » .

ودنا المقص من شاربي ابو حسن ، فذعر ، وحاول التملص من ايدي رجال الشرطة ، ولكن ايديهم كانت تقيده وتشله عن اي حركة ، فصاح بضراعة : « والله انا بريء » .

فازداد المقص دنوا من شاربي ابو حسن ، فصاح وقد طغى عليه رعب شديد : « دخيلكم » .

قال رئيس المخفر : « قل انك سرقت فـــلا يمسك اذى » .

وران الصمت لحظة ، ثم قـــال أبو حسن بصوت مرتعش : « أنا سرقت الحقيبة من المرأة » .

فضحك رئيس المخفر ، وقال باحتقار : « الى متـــى ستظل البلد تحوي أمثالك ؟! » .

وانقض المقص على شاربي أبو حسن ، وقضى عليهما بحركات متأنية متشفية ، بينما كان أبو حسن يصرخ صراخا مديدا اجش مبحوحا .

وخطا رئيس المخفر نحو طاولته ، ورمى المقص عـــلى سطحها ، وقال لرجاله : « ماذا تفعلون ؟ أيطربكم صوتـــه ؟ اسكتوه » .

فبادروا الى ضرب أبو حسن ثانية ضربا قاسيا حتـــى ارغموه على السقوط ارضا ، ولكنه استمر يصرخ ويشتم ، فنزعوا حذاءه ، ورفعوا قدميه الى أعلى ، وهوت عصا رفيعة على باطن القدمين بضربات قصيرة متلاحقة ، فصـــاح أبو حسن : « سأذبحكم جميعا يا أولاد الزنا ولو بقي من عمري يوم واحد » .

قال رئيس المخفر بينما كان يعـــاود الجلوس وراء طاولته : « استمروا في ضربه حتى يسكت . أسكت . لا اريد سماع اي صوت منك » .

والفى أبو حسن نفسه بعد حين يضغط بأسنانه على شفته السفلى خانقا الصراخ المتوجع الذي يريد ان ينفجر خارج الفم المدمى .

وحينئذ قال رئيس المخفر لرجاله : « اتركوه » .

ثم وجه الكلام الى أبو حسن : « هيا انهض وقف على قدميك » .

فأطاع أبو حسن ، ووقف بصعوبة مستجمعا كل ما بقي من قواه كي لا يتهاوى على الارض ، فقال له رئيس المخفر : « هيا احمل حذاءك » .

فنفذ أبو حسن الامر وهو يئن انينا خافتا ، ثم وقف مقوس الظهر وكل يد تحمل فردة حذاء .

قال له رئيس المخفر : « قل لي يا أبو حسن .. انـــت رجل أم امرأة ؟! » .

لم يجب أبو حسن ، فقال رئيس المخفر بحدة : « أنطق . الم تسمع ما قلت ؟ انت رجل أم امرأة ؟ » .

قال أبو حسن : « انا طبعا رجل » .

قال رئيس المخفر بصوت مرح : « كذبت . انت امرأة . هيا تكلم وقل انك امرأة . سأغضب اذا لم تقل انك امرأة . وانت صرت تعرف ما يحدث حين أغضب » .

قال ابو حسن بصوت خافت : « أنا .. امرأة » .

قال رئيس المخفر : « لم أسمع ما قلت . تكلم بصوت عال . أتظن انك توشوش حبيبتك ؟! » .

قال أبو حسن بصوت مرتفع وهو ينظر الى الارض : « انا امرأة » .

فقهقه رئيس المخفر ، وقال : « احمد ربك لاننا هنـــا لسنا من الشاذين جنسيا » .

فضج رجال الشرطة بالضحك ، فقال لهم رئيس المخفر

بلهجة آمرة مشمئزة : « خذوه ، وسأراه فيما بعد لاتابع تربيته وتأديبه » .

فانقضّ رجال الشرطة على ابو حسن ، وجرّوه الى خارج الغرفة وهم يركلونه ويصفعونه ويشتمونه ، واقتادوه الى احدى الغرف ، ودفعوه اليها واقفلوا بابها . وكانت غرفة تخلو من اي أثاث ، ولا نوافذ لها ، ويتدلى من سقفها مصباح كهربائي ضعيف النور ، فتهاوى ابو حسن على ارضها وهو يئن متوجعا .

وسمع فجاة صوتا رفيعا يقول له بنبرة متسائلة : « ضربوك كثيرا ؟! لا تزعل .. الضرب تسليتهم الوحيدة » .

فرفع ابو حسن راسه مستطلعا ، فراى ولدا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، وكان قاعدا على الارض ، مسندا ظهره الى الحائط ، فسأله ابو حسن باستغراب : « ماذا تفعل هنا ؟! » .

اشار الولد بيده نحو الباب ، وقال : « هم قبضوا عليّ » .

ـ « لاي سبب ؟! » .

ـ « لم افعل شيئا » .

ـ « قبضوا عليك دون أن تفعل شيئا ؟ » .

ـ « ذبحت أمي » .

فصاح ابو حسن مرتاعا : « الله يلعنك .. ماذا قلت ؟ » .

ـ « ذبحت أمي . كانت تطهو طعاما لا تاكله حتى الكلاب الجائعة » .

وضحك الولد بمرح ، واشار الى باب الغرفة ، وقال :

« مساكين ! جنوا وهم يفتشون ولكنهم لم يعثروا على السكين » .

وخيل لابو حسن انه غارق في سبات عميق ويشاهد حلما مرعبا ، ولاذ بالصمت ، وحدق الى الولد مذهولا متناسيا الالم الذي يحرق عظمه ولحمه ، وكان الولد ذا وجه اسمر وديع وشعر أسود طويل ناعم .

قال الولد : « أريد أن انام » .

قال أبو حسن بصوت فظ . « نم . من يمنعك ؟ » .

قال الولد : « تعودت الا انام الا بعد أن تروي لي أمي حكاية » .

قال ابو حسن : « اخرس ونم » .

قال الولد : « احك لي حكاية » .

فظل أبو حسن ساكتا يحملق واجما ، فقال له الولد : « اذا حكيتلي حكاية فسأعطيك سكينا تذبح مئة شخص » .

فبدت في عيني أبو حسن نظرة دهشة ، فسارع الولد الى خلع فردة حذائه ، واخرج منها سكينا ذات نصل طويل رفيع رقيق ملطخ بدم جاف ، ولوح بها قائلا : « ها هي .. ظننت اني أكذب عليك ؟ » .

مدّ أبو حسن يده نحوه قائلا بلهجة آمرة : « هاتها » .

فأعطاه الولد السكين ، وما ان امسك ابو حسن بها حتى التفت أصابعه حول مقبضها بحركة ضارية .

واستلقى الولد على الارض ، وقال بصوت متوسل : « هيا احك لي حكاية » .

ساد الصمت هنيهات ، ثم قال أبو حسن بصوت

رتيب : « كان في سالف العصر والاوان رجل اسمه مصطفى، وكان فقيرا لا يملك من متاع الدنيا سوى شاربيه . وفي يوم من الايام اصدر ملك البلاد أمرا يقضي بأن يحلق كل الرجال في مملكته شواربهم ، فأطاع الجميع امر الملك ما عدا مصطفى الذي ابى التخلي عن شاربيه ، فاعتقل ، وضرب وأهين وسجن ، ثم اخرج من السجن ليمثل بين يدي الملك وينال ما يستحق من جزاء .

سأل الملك مصطفى : « لماذا لم تطع امري وتحلق شاربيك ؟ الا تعرف عقاب من يخالف امرا من اوامري ؟! » .

قال مصطفى للملك : « انا ملك يديك وتستطيع أن تفعل بي ما تشاء . انا ارحب بأن يقطع راسي ولكني لن ارضى بأن احلق شاربيّ » .

ابتسم الملك بمكر ، وقال : « سأمنحك الف دينار اذا حلقت شاربيك » .

قال مصطفى : « لا » .

قال الملك : « لا تكن عنيدا متسرعا . اسمع . اتريد اكثر ؟ حسنا . سأعطيك الف الف دينار » .

قال مصطفى : « كل ما في الدنيا من ذهب لا يساوي شعرة من شاربي رجل » .

قال الملك : « سأعينك وزيرا لي » .

فظل مصطفى مصرا على الرفض ، فقال الملك : « سأعينك رئيسا لوزرائي » .

قال مصطفى : « افضل ان اكون شحاذا . شحاذ بشاربين افضل من رئيس وزراء بلا شاربين » .

قال الملك : « سأجعلك شريكي .. تحكم مملكتي كما احكمها » .

فلم يتراجع مصطفى عن رفضه حلق شاربيه ، فأطرق الملك برأسه وفكر ساعة ، وتكلم بعدها ، وقال لمصطفى : « انت فعلا رجل . وقد اثبت انك الرجل الوحيد في مملكتي ، فاحتفظ بشاربيك وسأكافئك خير مكافأة » .

وزوج الملك مصطفى من ابنته التي كانت اجمل امراة في الدنيا .

وأحب مصطفى بنت الملك اشد الحب ، وعاش معها أشهرا بسعادة وهناء ، حتى جاء يوم افاق فيه مصطفى من نومه صباحا فاذا بنت الملك عابسة الوجه مكتئبة ، فسألها مصطفى بلهفة عما بها ، فقالت له : « اتسأل وانت السبب ؟ »

قال لها مصطفى متعجبا محتارا : « انا ؟! لا عاش من يزعلك . قولي لي مت فألبي رغبتك دون تردد » .

قالت بنت الملك : « انا متضايقة جدا من شاربيك ، ولو تخلصت منهما فلا بد انك ستصير أجمل رجل وسأحبك اكثر » .

فاستنكر مصطفى كلامها ، وحاول اقناعها بخطأ ما قالته ، ولكنها لم تقتنع ، وقالت له : « لن تبصر وجهي بعد اليوم الا اذا حلقت شاربيك » .

ونفذت بنت الملك وعيدها ، وحبست نفسها في مخدعها ، واقفلت بابها من الداخل .

وتعذب مصطفى طويلا لما حرم من رؤية من يحب ، ولكنه صبر وتجلد الى ان جاء يوم ضعف فيه واستسلم لصوت قلبه فحلق شاربيه ، وهرع الى مخدع بنت الملك ،

وقرع بابه وهو يهتف : « افتحي .. فعلت ما ترغبين فيه » .

وفتحت بنت الملك باب مخدعها . وما أن رأت مصطفى حتى تراجعت الى الوراء وهي تضحك ضحكا متواصلا ، فدنا مصطفى منها متلهفا اليها وحاول معانقتها ، ولكنها قفزت مبتعدة عنه وهي تقول بجفاء : « اياك والاقتراب مني » .

قال مصطفى : « لماذا ؟ » .

قالت بنت الملك : « اذا أردت معرفة السبب فاذهب الى المرآة وانظر فيها ، فقد صرت دون شاربين مثيرا للضحك اكثر من اي مهرج في مملكة أبي ، وصرت أيضا قبيحا الى حد ان كلبة عمرها مئة سنة لا تقبل بالنظر اليك نظرة واحدة » .

لما سمع مصطفى كلام بنت الملك حزن حزنا شديدا ، واستل خنجره وطعن به قلبه طعنة قوية وهو ينظر الى بنت الملك نظرة وداع وحب ولوم .

وصاحت بنت الملك مستاءة بينما كان مصطفى يترنح موشكا على السقوط ارضا : « ابتعد .. ابتعد عن سريري لئلا تقع عليه فتتسخ اغطيته بدمك » .

وعندما علم الناس بموت مصطفى وما جرى له ، حزنوا عليه كثيرا وبكوا ... » .

بتر ابو حسن كلامه ، ونظر الى الولد ، فألفاه متمددا على الارض ، مغمض العينين ، مستسلما بوداعة لنوم عميق، فازدادت أصابعه الملتفة حول مقبض السكين شراسة .

وزحفت السكين رويدا رويدا نحو الولد ، ثم توقفت مرتجفة غاضبة ، حائرة بين قلب أبو حسن وعنق الولد .

الفندق

جاء أكرم الاسماعيل من مكان بعيد دونما حقيبة ، ولما ترجل من السيارة السوداء اللون ووطىء الارض تمطى وهو يتنهد بارتياح مغمورا بشمس موشكة على الافول .

ثم استنشق الهواء بنهم متطلعا فيما حوله ببهجة وفضول .

وسار بخطى متمهلة . وكان للسماء وقتئذ لون رمادي .

وكانت أحجار المباني باهتة البياض ، والناس يمشون متجهمين صامتين . وحثّ أكرم خطاه لحظة بلغ شارعا تتناثر على جانبيه المقاهي والمطاعم ودور السينما والمحال التجارية ، ولكنه ما أن أبصر أول فندق حتى داهمه تعب مباغت ، فدلف توا الى داخل الفندق ، وأجال نظرة خاطفة في ردهة واسعة معتمة تفوح من مقاعدها ومناضدها رائحة عفنة ، فاشمأز وهمّ بالانسحاب ، غير انه لمح رجلا عجوزا قابعا خلف مكتب خشبي ، وكان يحدق الى أكرم باستغراب ممزوج بازدراء ، فوجد أكرم نفسه يقترب منه ويقول له : « أريد غرفة » .

قال العجوز بصوت بلغ سمع أكرم شبيها برائحـــة الردهة : « أتريد غرفة واحدة ؟ » .

ــ « نعم ، غرفة واحدة » .

ــ « غرفة بسرير أم بسريرين ؟ » .

ــ « غرفة بسرير واحد » .

ــ « اذن تريد غرفة بسرير واحد ؟ » .

ــ نعم . غرفة بسرير واحد » .

ــ « هات هويتك » .

وطفق العجوز يتمتم بكلمات مبهمة بينما كان يسجل اسم اكرم في دفتر كبير مفتوح امامه ، ثم أعاد الهوية الى اكرم ، وتناول مفتاحا معلقا على لوحة خشبية خلفه ، وصاح بصوت ممطوط : « فؤاد » .

فتعالى صوت من احدى الغرف :« نعم » .

ومرت لحظات عاود العجوز بعدهـا الصراخ بغضب : « فؤاد يا كلب » .

ــ « نعم » .

ــ « تعال حالا » .

فأتى فتى أشقر الشعر لا يتجاوز عمره العاشرة ، ودنا من العجوز محمر الوجه يلهث ، فرفع العجوز يده بحركـة فجائية ، واهوى بها على وجه الفتى ، ثم أعطاه المفتاح وقال له وهو يشير الى اكرم : « خذه الى الغرفة رقم سبعة » .

وتبع أكرم الفتى في دهليز طويل على جانبيه أبـواب غرف كثيرة أثار عددها دهشة أكرم وعجبه .

وفتح الفتى احد الابواب ، قال لاكرم : « هذه غرفتك »

قال أكرم وهو يبتسم : « اسمك فؤاد ؟ » .

فهز الفتى راسه بالايجاب ، ثم همس : « اقفل الباب حين تريد النوم » .

قال اكرم متسائلا بدهشة : « لمـاذا ؟ » .

فتلفت فؤاد فيمـا حوله شاحب الوجه ، وقال : انهم يأتـون فـي الليـل » .

« ــ من هم الذيـن يأتون في الليل؟ »

فهم فؤاد بالجواب غير ان صوت العجوز تعالى فـي تلك اللحظـة مناديا ، فبدا الرعب الشديد على فؤاد وهرول في الدهليـز مبتعدا .

وتجعد وجه اكرم حين اصبح في الغرفة وتقوس ظهره، وبدا وكأن شبابه قدولى على حين غرة وسارع الى الاستلقاء على السرير دون ان يحاول خلع ثيابـه ، واغمض عينيـه . وخيل اليـه بعد هنيهات انه يسمع فؤادا يصرخ بصوت مفعم بالذعر والالم ، فقفز واقفا ، واتجه نحـو باب الغرفة واراد ان يفتحه ، ففوجيء به موصدا من الخارج ، فتصبب العرق من جبينه ، وتراجع نحـو السرير وجلس على حافته بينمـا كـان صراخ فؤاد يشتد ممتزجا بصوت العجوز وصـوت امـرأة .

وتنبه اكرم الى ان الغرفة دون نوافذ ، وظل لحظات دون حراك ثم خلع ثيابه واستلقى على السرير وهو يرتجف ،وغطى جسمه كله باللحاف محاولا الا يسمع سوى صـوت انفاسه المتهدجـة المتسارعة ، ومـا لبث ان استسلم لنوم عميق .

وافاق من نومه بغتة على صرير باب الغرفة ، فحاول فتح عينيه والنهوض من السرير ، فأخفق وحاول ان يتكلم ولكـن شفتيه تقلصتا دون صوت .

وانصت ، فبلغه وقع اقدام كثيرة على ارضية الغرفة، ثم سمع صوت امراة تصيح بذعر : « اتركوني » . فضحك رجال مجهولون ضحكات خشنة ساخرة بينما صاحت المرأة: « ابعدوا ايديكم عني » .

وتعالت ضجة انبثقت منها صيحات المرأة متقطعة مستغيثة ثم تلاشت رويدا رويدا ، ولم يبق سوى اللهاث المحموم وانين المرأة التي ظلت ترد : « ماما .. ماما .. ».

وأحس اكرم ان انين المرأة قد تحول الى نار تسللت الى شرايينه ، فحدق بنشوة الى الرجال الذين كانوا عراة يتعاقبون على جسد المرأة وكانت المرأة دميمة هرمة مستلقية على ظهرها ، مفتوحة الفخذين ، لها نهدان مترهلان يشبهان جوربين عتيقين ، فضحك اكرم بمرح ، وحاول النهوض من السرير ، فعجز ، فند عن حنجرته صوت كعواء ذئب جريح ، واغمض عينيه ، ليسمع بعد قليل رجالا يقولون باصوات متوعدة :

« سنضربك »

« سنضربك حتى تموت » .

« سنضربك حتى تتمنى الموت » .

« اعترف »

وسمع اكرم صوت رجل يهتف بضراعة : « بماذا اعترف ؟ »

فتعالت اصوات الرجال مهددة : « تكلم » .

« اعترف والا ندمت » .

« اعترف بجريمتك » .

قال الرجل متسائلا : « اي جريمة ؟! »

فتعالت صيحة آمرة من اكرم : « اضربوه » .

وضرب الرجل بقسوة بينما كان اكرم يصيح : « اضربوه .. اضربوا » .

وفجأة ساد الصمت .

« مات » .

« ماذا سنفعل ؟ » .

« فلندفنه » .

« اين ؟ » .

« هنا في هذه الغرفة » .

فقهقهه اكرم هازئا ، وقال : « هذا اقتراح غبي »

واهوى بالفأس على جثة الرجل الميت وقطعها الى قطع صغيرة ثم حملها الى المرحاض ، وترك المياه تتدفق بعنف وتحمل معها اللحم الممزق . وتزايد وهن اكرم ، وقال لنفسه : « لم افعل ما فعلت . انا الآن نائم . وما حدث مجرد حلم مزعج » .

وسمع في تلك اللحظة ضحكة طفل اعقبها صوت رجل متذمر يقول : « نم والا زعلت منك »

قال الطفل : « انا جائع » .

قال الرجل : انت اكلت لحم امك كله ولم يبق منه شيء فنم دون قيل وقال » .

قال الطفل : لا استطيع النوم وانا جائع » .

قال الرجل : « هل ستنام اذا حكيت لك حكاية ؟ »

قال الطفل : « سأنام اذا حكيت لي حكاية » .

قال الرجل : «في يوم من الايام القديمة هربت بنت من

بيت اهلها ، فطاردهـا اخوهـا حتى عثر عليهـا فأرغمها على الذهاب معه الى بستان ، وهناك ذبحهـا وفصل راسها عـن جسمهـا » .

فاستل اكرم سكينه ، وطعن بها فتاةجميلة الوجـه ، سوداء الشعر ، فصاحت الفتاة : « قتلتني » .

« ترك الاخ جسم اخته في البستان واخذ راسها معه وعلقه على حائط الغرفة التي ينام فيهـا وكان في كل ليلـة يقول للراس قبل ان ينام : « ليلتك سعيدة يا اختـي » . فيقول له رأس الاخت : « وليلتك سعيدة يا اخي . نم باكرا كي تفيق في الصباح قادرا على العمل » .

وساد الصمت قليـلا ثم قال الرجل متسائلا : « هل عرفت مغزى هذه الحكايـة ؟ » .

قال الطفل : « مغزاهـا ان النوم نافع للجسم » .

قال الرجل :« اذن هيا نم ».

ونام الطفل ، ونام اكرم . وعندمااستفاق كانت شمس الصباح تغمره بنورها الاتي من نافذة مفتوحة ، فحملق اكرم الى النافذة مندهشا ، واتاه ضجيج الشـارع كصوت اليف يناديـه بحنان ، فترك سريره وهو يصفـر لحنا مرحا ، وارتدى ثيابه بسرعة ، وغادر الغرفة ، وسار في الدهليـز الموصل الى ردهـة الفندق ، وهناك الفى العجـوز مـا زال قابعا خلف مكتبه الخشبي . وحين اراد اكـرم ان يدفـع اجر مبيته ، قال له العجـوز وهو يبتسم بهزء : « انسيت ؟ انـت دفعت الاجر البارحـة » .

قال اكرم : « غريب ! لا اذكر اني دفعت اي اجر » .

قال العجوز : « ذاكرتك ضعيفة بالتأكيد » .

ثم اضاف : « هل ستترك فندقنا ؟ » .

قال اكرم : « انا مضطر الى السفر اليوم » .

وغادر اكرم الفندق ، وسار بخطى واهنة متعثرة وكأنها الخطوات الاولى لطفل ، وكان بعـد كل خطوة يزداد ثقـة بانه عائد الى الفندق حالما يقبل الليـل .

النمور في اليوم العاشر

رحلت الغابات بعيدا عن النمر السجين في قفص ، ولكنه لم يستطع نسيانها ، وحدق غاضبا الى رجال يتحلقون حول قفصه واعينهم تتأمله بفضول ودونما خوف ، وكان احدهم يتكلم بصوت هادىء ذي نبرة آمرة : « اذا اردتم حقا ان تتعلموا مهنتي ، مهنة الترويض ، عليكم الا تنسوا في اي لحظة ان معدة خصمكم هدفكم الاول ، وسترون انها مهنة صعبة وسهلة في آن واحد . انظروا الان الى هذا النمر . انه نمر شرس متعجرف، شديد الفخر بحريته وقوته وبطشه، ولكنه سيتغير ، ويصبح وديعا ولطيفا ومطيعا كطفل صغير ، فراقبوا ما سيجري بين من يملك الطعام وبين لا يملكه ، وتعلموا » .

فبادر الرجال الى القول انهم سيكونون التلاميذ المخلصين لمهنة الترويض ، فابتسم المروض مبتهجا ، ثم خاطب النمر متسائلا بلهجة ساخرة : « كيف حال ضيفنا العزيز ؟» .

قال النمر : « احضر لي ما آكله فقد حان وقت طعامي» .

فقال المروض بدهشة مصطنعة : « اتأمرني وانت سجيني ؟ يا لك من نمر مضحك ! عليك ان تدرك انني الوحيد الذي يحق له هنا اصدار الاوامر » .

قال النمر : « لا احد يأمر النمور » .

قال المروض : « ولكنك الان لست نمرا . انت في الغابات نمر ، اما وقد صرت في القفص فانت الان مجرد عبد تمتثل للاوامر وتفعل ما اشاء » .

قال النمر بنزق : « لن اكون عبدا لاحد » .

قال المروض : « انت مرغم على اطاعتي لانني انا الذي املك الطعام » .

قال النمر : « لا اريد طعامك » .

قال المروض : « اذن جع كما تشاء ، فلن ارغمك على فعل ما لا ترغب فيه » .

واضاف مخاطبا تلاميذه : « سترون كيف سيتبدل فالراس المرفوع لا يشبع معدة جائعة » .

وجاع النمر ، وتذكر بأسى ايام كان ينطلق كريح دون قيود مطاردا فرائسه .

وفي اليوم الثاني ، احاط المروض وتلاميذه بقفص النمر ، وقال المروض :« الست جائعا ؟ انت بالتأكيد جائع جوعا يعذب ويؤلم . قل انك جائع فتحصل على ما تبغي من اللحم » .

ظل النمر ساكتا ، فقال المروض له : « افعل ما اقول ولا تكن احمق . اعترف بانك جائع فتشبع فورا » .

قال النمر : « انا جائع » .

فضحك المروض وقال لتلاميذه : « ها هو ذا قد سقط في فخ لن ينجو منه ».

واصدر اوامره ، فظفر النمر بلحم كثير .

وفي اليوم الثالث ، قال المروض للنمر : « اذا اردت اليوم ان تنال طعامــا ، نفذ ما سأطلب منك » .

قال النمر : « لن اطيعك » .

قال المروض : « لا تكن متسرعا فطلبي بسيط جدا . انت الان تحوص في قفصك ، وحين اقول لك : قف ، فعليك ان تقف » .

قال النمر لنفسه : « انــه فعلا طلب تافه ولا يستحق ان اكون عنيدا واجوع » .

وصاح المروض بلهجة قاسية آمرة : « قف » .

فتجمد النمر تــوا ، وقــال المــروض بصوت مرح : « أحسنت » .

فسرّ النمر ، واكل بنهم بينما كان المروض يقـــول لتلاميذه « سيصبح بعد ايام نمرا من ورق » .

وفي اليوم الرابع ، قال النمر للمروض :« انــا جائــع فاطلب منــي ان اقف » .

فقال المروض لتلاميذه : « هاهو قد بدأ يحب اوامري »

ثم تابع موجها كلامه الى النمر : « لن تأكل اليوم الا اذا قلدت مواء القطط » .

فكظم النمر غيظه ، وقال لنفسـه : « سأتسلى اذا قلدت مواء القطط » .

وقلد مواء القطط فعبس المروض، وقــال باستنكار : « تقليدك فاشل . هل تعد الزمجرة مواء » .

فقلد النمر ثانية مواء القطط ، ولكن المروض ظل متجهم الوجه ، وقال بازدراء : « اسكت اسكت . تقليـدك مـا زال

فاشلا . سأتركك اليوم تتدرب على مواء القطط ، وغــدا سأمتحنك فاذا نجحت اكلت ، اما اذا لم تنجح فلن تأكل » .

وابتعد المروض عن قفص النمر وهــو يمشي بخطــى متباطئة ، وتبعه تلاميذه وهم يتهامسون متضاحكين . ونادى النمر الغابات بضراعة ، ولكنها كانت نائية .

وفي اليوم الخامس ، قال المروض للنمر : «هيا ، اذا قلدت مواء القطط بنجاح نلت قطعة كبيرة مــن اللحــــم الطــازج » .

قلد النمر مواء القطط ، فصفق المروض ، وقال بغبطة: « عظيم انت .. تموء كقط في شباط » .

ورمى اليه بقطعة كبيرة من اللحم .

وفي اليوم السادس ، ما ان اقترب المروض من النمــر حتى سارع النمر الى تقليد مواء القطط . ولكن المروض ظل واجما مقطب الجبين ، فقال النمر « ها انا قد قلدت مــواء القطط » .

قال المروض : « قلد نهيق الحمار » .

قال النمر باستياء : « انا النمــر الذي تخشاه حيوانات الغابات ، اقلــد الحمار ؟ سأموت ولن انفذ طلبك » .

فابتعد المروض عن قفص النمر دون ان يتفوه بكلمة .

وفي اليوم السابع ، اقبل المروض نحو قفص النمـــر باسم الوجه وديعا ، وقال للنمر : « الا تريد ان تأكل ؟ »

قال النمر :« اريــد ان آكل » .

قال المروض « اللحم الذي ستأكله له ثمن ، انهـــق كالحمار تحصل علــى الطعام » .

فحاول النمر ان يتذكر الغابات ، فاخفق ، واندفع ينهق

مغمض العينين ، فقال المروض : « نهيقك ليس ناجحا ، ولكنني ساعطيك قطعة من اللحم اشفاقا عليك » .

وفي اليوم الثامن ، قال المروض للنمر : « سألقي مطلع خطبة ، وحين سأنتهي صفق اعجابا » .

قال النمر : « ساصفق » .

فابتدأ المروض القاء خطبته ، فقال : « ايها المواطنون.. سبق لنا في مناسبات عديدة ان اوضحنا موقفنا من كل القضايا المصيرية ، وهذا الموقف الحازم الصريح لن يتبدل مهما تآمرت القوى المعادية ، وبالايمان سننتصر » .

قال النمر : « لم افهم ما قلت » .

قال المروض : « عليك ان تعجب بكل ما اقول وان تصفق اعجابا به » .

قال النمر: « سامحني . انا جاهل امي ، وكلامك رائع وساصفق كما تبغي » .

وصفق النمر ، فقال المروض :« انا لا احب النفاق والمنافقين ، ستحرم اليوم من الطعام عقابا لك » .

وفي اليوم التاسع ، جاء المروض حاملا حزمة من الحشائش والقى بها للنمر وقال : « كل » .

قال النمر : « ما هذا ؟ انا من آكلي اللحوم » .

قال المروض : « منذ اليوم لن تأكل سوى الحشائش » .

ولما اشتد جوع النمر ، حاول ان يأكل الحشائش ، فصدمه طعمها ، وابتعد عنها مشمئزا ، ولكنه عاد اليها ثانية ، وابتدأ يستسيغ طعمها رويدا رويدا .

وفي اليوم العاشر ، اختفى المروض وتلاميذه والنمر والقفص ، فصار النمر مواطنا ، والقفص مدينة .

ما حدث في المدينة التي كانت نائمة

١ ـ المجنون

لما ترامى الى الملك بأن عالما شهيرا يدعى الحسن بن الهيثم يحيا في مملكته ، بادر الى استدعائه ، وكلفه بالاشراف على مدافىء قصره ، ومنحه راتبا شهريا سخيا وهو يقول : « البلاد التي لا تقدر علماءها محكوم عليها بالبقاء في ظلام الجهل وربقته » .

فكتب المؤرخون توا ما قاله الملك بمداد من ذهب .

ثم جاء يوم تحلق فيه عدد من طلاب العلم حول الحسن ابن الهيثم ، ورجاه واحد منهم أن ينبئهم بما يستحق أن يضحي الانسان بحياته في سبيله .

فقال الحسن بن الهيثم دونما تردد : « لا شيء يستحق أن يضحي المرء بحياته في سبيله سوى العلم والحق » .

ولما علم الملك بما قاله الحسن بن الهيثم ، غضب وقال : « اهكذا يتكلم من غمرناه بفضلنا ؟! » .

ثم اضاف متسائلا بنزق : « والملك ؟ الا يستحق ان يضحي الناس بأرواحهم في سبيله ؟! » .

وصمم الملك على اهلاك الحسن بن الهيثم ، ولكنه كظم غيظه ، واخفى ما ينوي ، وآثر انتظار حلول الوقت الملائم .

وتنبه الحسن بن الهيثم الى الخطر الذي يهدده ، فسارع الى المثول بين يدي الملك ، وقال له : « لدي يا مولاي مفاجأة عظيمة ! » .

قال الملك بحبور مصطنع : « مفاجأة ! انا احب المفاجآت، فهيا تكلم عنها » .

قال الحسن بن الهيثم : « لقد اخترعت آلة لا مثيل لها » .

قال الملك بهزء خفي : « وما هي تلك الآلة .. الغريبة .. العجيبة ؟ » .

قال الحسن بن الهيثم : « انها فعلا آلة غريبة عجيبة . اذا وضعت فيها جملا تحول الى طير من معدن يطير أفضل من اي طير ، ولا يقارن ببساط الريح .. واذا وضعت فيها الرماح والسيوف تحولت الى دبابات وقنابل ، واذا ... » .

فقاطعه الملك قائلا : « وما هي الدبابات والقنابل ؟ » .

قال الحسن بن الهيثم : « انها آلات تهلك الاعداء وتدمر قلاعهم » .

قال الملك بصوت ساخر : « وماذا تستطيع آلتك ان تفعل أيضا ؟ » .

قال الحسن بن الهيثم : « اذا وضع فيها حصان تحول الى سيارة » .

قال الملك : « سيارة !! ما هي السيارة ؟ » .

قال الحسن بن الهيثم : « انها عربة من معدن تمشي

وحدها على اربعة دواليب من مطاط دون أن يجرها احد » .

فقهقه الملك بمرح ، وقال لاعوانه وهو يشير بسبابته الى الحسن بن الهيثم : « جنّ المسكين جنونا لا شفاء منه » .

ثم تجهم وجه الملك ، وتكلم بصوت صارم ، فعزل الحسن بن الهيثم من منصبه ، وأمر بحجزه في بيته حتى الموت .

ونفذ الامر الملكي ، وبقي الحسن بن الهيثم حبيس بيته طوال سنين عديدة . وحين توفي الملك ، عاد الحسن بن الهيثم حرا ، فسرّ الناس ولكنهم فوجئوا بأنه ما زال يتكلم بحماسة عن آلته الغريبة العجيبة ، فهزوا رؤوسهم آسفين .

٢ — الهرب

استسلم الرجل المصنوع من ورق عتيق لمخالب النمر القادم من الادغال المظلمة ، ثم نادى الكلمات بصوت متهدج متوسل ، وقال لها : « اعطيني خبزا » .

فأجابت الكلمات بأنها لا تملك خبزا ، عندئذ طلب من النجوم الاختباء ، وغادر البيت وهو يحمل حقيبة ملأى بالكتب ، وانطلق الى احدى الاسواق ، وهناك باع الكتب ، واشترى بثمنها خبزا وحبوبا منومة وقرنفلتين ، ثم عاد الى البيت بخطى مرحة ، ووقف امام المرآة ، وحدق اليها بفضول ولهفة ، فأبصر رجلا ملطخا بالدماء ، والفى نفسه يخضع رويدا رويدا لصوت انبثق من شرايينه ، وحلق في سماء الغرفة بجناحين أسودين ، فأحنى رأسه بذل وابتلع الحبوب المنومة وهو يرمق الخبز والقرنفلتين بنظرة هزء وانتصار .

فصاحت احـــدى القرنفلتين : « ماذا فعلت ؟ صرت قاتـــلا » .

قال الرجل : « اخرسي والا رميت بك الى مزبلة » .

قالت القرنفلة : « تأدب . انا لست قرنفلة » .

قال الرجل متسائلا بلهجة هازئة : « من أنت ؟! » .

قالت القرنفلة : « انا شرطي متنكر » .

قال الرجل : « ساصدق ما تقولين يوم أجن » .

قالت القرنفلة : « كن مؤدبا والا سلخت جلدك وحشوته قشا كما فعل اجدادي بأجدادك » .

فاغمض الرجل عينيه ، واجتاحه الاسى ، واستسلم للحبوب المنومة التي حملته الى قاع سحيق مظلم ، وهنـاك صنع سبع ذبابات .

قالت الذبابة الاولى : « مت اليوم ما دمت ستمـوت غـــدا » .

قالت الذبابة الثانية : « دموعك وحدها ستبلل قبرك »

قالت الذبابة الثالثة : « سفرك الى مملكة النجوم يحتاج الى جواز سفر لن تناله » .

قالت الذبابة الرابعة : « اذا هربت فمن قبر الى قبر ستهرب » .

قالت الذبابة الخامسة : « سيكون كفنك مـــن ورق اصفـر » .

قالت الذبابة السادسة : « لن تمشـــي في جنازتك سوى الكتب » .

قالت الذبابة السابعة : « اليوم يوم هلاكك » .

عندئذ رفع الرجل يدا غاضبة ، واهـوى بها عـــلى

الذبابات السبع ، فسحقها ، ثم عمل طوال ستة أيام ليصير في اليوم السابع الذبابة الثامنة ، فطار مبتهجا ، ودخل الى غرفة في مدرسة ، وارتجف نشوانا وهو ينصت لاصـــوات الاطفال الذين كانوا يقرأون بحب كلمات مكتوبة على لـــوح أسود ، ولكنه ما أن حط على سطح طاولة حتى اصطاده ولد صغير بحركة خاطفة من يده ، وسحقه توا بأصابعه ، فـلم يصرخ متألما انما تنهد بارتياح .

٣ ـ شجرة الاقمار الحمراء

اقتحم رجال غرباء حقلا تغطي أشجار البرتقال أرضـه الخضراء ، وأطلقوا النار على المرأة ، وابعدوا طفلها عن ثدييها الطافحين بالحليب الحار ، ثم نقلوه الـــى غرفة التحقيــق المزدحمة بالخوذ الحديدية .

بكى الطفل ، فقال المحقق لرجل يجلس وراء طـاولة تكدس على سطحها ورق ابيض كثير ، واصابعه تمسك القلم بحركة من يشهر مدية : « سجل انه بكى نادما لانه عربي » .

ثم قال للطفل : « هيا تكلم ولا تحاول الكذب او الانكار فمن المؤكد انك عندما تكبر ستحمل السلاح وتقتلنا لتمتلك حقلنا الذي كان حقلك » .

عندئذ صاحت الخوذ الحديدية : « الموت للقاتل » .

فقال المحقق للطفل : « حكمت عليك المحكمة بالموت » .

وبادرت الخوذ الحديدية الى حفر حفرة في الحقـــل الذي تغطي أشجار البرتقال أرضه الخضراء ، ووضعت فيها الطفل ، واهالت فوقه ترابا وحجارة ، فصاخ : « ماما » .

فهرعت اليه الدماء النازفة من جسد أمه ..
ولما اقبل الربيع صار الطفل شجرة برتقال ، وكانت ثمارها اقمارا حمراء تحرق ليلا نائي الفجر .

٤ ـ لا ..

كان الرجل الهرم يجلس في باحة البيت على كرسي خشبي قصير القوائم مسندا ظهره الي حائط ابيض اللون.

وكان مغمض العينين مغمورا بضياء شمس دافئة ، يتخيل انه قد صار ملكا تنحني له الرؤوس ، وترتجف الارض لحظة يغضب . ويتخيل قطا يسعل ويقول : « سأموت لاني ادخن السجائر » . ويتخيل طفلا يحترق ويستنجد صارخا : « ماما » ، فلا تأبه أمه له وتتابع عنايتها بزينتها وهي واقفة امام مرآة كبيرة .

وفتح الهرم عينيه لحظة سمع باب البيت يفتح ، وابصر ابناءه السبعة يدخلون حاملين خشبا ومنشارا ومطارق ، فقال لهم متسائلا : « ماذا تحملون ؟ » .

فلم يجب احد بكلمة ، ووضعوا ما يحملون على أرضية باحة البيت ، وابتدأوا يعملون واجمين .

سألهم الهرم : « ماذا تصنعون ؟ » .

فقوبل سؤاله بالصمت ، فتابع الكلام قائلا : « لا بد انكم تصنعون صندوقا » .

وضحك ساخرا ثم قال : « ماذا تريدون أن تفعلوا بالصندوق ؟ هل ستضعون فيه ثيابكم المهترئة ؟ ».

لم يجب الابناء ، وظلوا يعملون بسرعة .

قال الهرم : « عرفت ما تصنعون . انتم تصنعون خزانة لحفظ الطعام . ما الفائدة من تلك الخزانة ما دامت الفئران قد كفت منذ سنين عن القدوم الى بيتنا لعلمها انها لن تجد ما تأكل ؟! » .

ظل الابناء السبعة صامتين ، يعملون بوجوه متجهمة ، فقال لهم الهرم بصوت حانق : « اللعنة عليكم ! ما هذا السلوك ؟ ايخاطبكم ابوكم فلا تجيبون ؟ على الابناء احترام الآباء . يا ضياع تعبي في تربيتكم . » .

وعاد الهرم الى اغماض عينيه ، وتخيل رجالا سكارى يحتضرون على الارصفة ، وينتحبون ويقولون : « ما ابشع حياتنا وختامها ! لم نصل . لم نصم . لم نحج . لم ندفع زكاة » .

فيقول لهم صوت خشن أبح : « عشتم كالكلاب فموتوا كالكلاب » .

وساد في باحة البيت صمت مباغت ، ففتح الهرم عينيه ، فاذا أبناؤه قد انتهوا من عملهم ، فصاح مدهوشا : « ماذا صنعتم ؟ صنعتم تابوتا ؟! من منكم ينوي أن يموت ؟ »

قال واحد من الاولاد : « التابوت لك » .

قال الهرم : « يا لك من ابن سمج ! تتكلم دائما كلام مجانين . التابوت للموتى اما انا فما زلت حيا ومستعدا للزواج من بنت عمرها خمس عشرة سنة » .

ودنا الابناء السبعة من الهرم بخطى بطيئة ووجوه مقطبة ، فقال بذعر : « ما بكم ؟ اجننتم ؟ ماذا تريدون أن تفعلوا ؟ » .

وحاول المقاومة عندما حمله ابناؤه ووضعوه في التابوت ، ولكن ايديهم القوية سمرته في قاع التابوت ، فانتحب وابتلت بالدموع لحيته الطويلة البيضاء ووجهه المتجعد ، وقال : « أنتم مجانين » .

قال واحد من الابناء بصوت هادىء : « آن لك أن تموت » .

صرخ الهرم : « هل تعرفون ما تفعلون ؟ أنتم تقتلون اباكم ؟ ماذا فعلت حتى اعامل هذه المعاملة ؟ » .

قال الابن الاول : « انت علمتنا كيف نحني رؤوسنا » .

قال الابن الثاني : « وعلمتنا تقبيل اليد التي تصفعنا » .

قال الابن الثالث : « يخيفنا ثوب امرأة » .

قال الابن الرابع : « ونصبح جوارب عتيقة حين نشاهد ركبة امرأة ! » .

قال الابن الخامس : « لقد علمتنا النوم أيام العاصفة » .

قال الابن السادس : « لا ماض لنا ولا حاضر ولا مستقبل » .

قال الابن السابع : « ونحن لا نجرؤ على النظر الى السماء » .

فصاح الهرم : « ولكني لم أمت بعد » .

فلم يكترث الابناء بصرخته ، ودقوا المسامير في غطاء التابوت ، ثم أحرقوا كل ما في البيت من قماش يصلح لان يكون راية بيضاء ، ثم حملوا التابوت الى المقبرة .

السهرة

رحبت حارة السعدي برحيل شمس النهار ، فالليلة يتصالح رجلان من أشرس رجالها ، فأبو شكور وأبو كاسم قادران على أن يقتلا ويسيرا هادئين في جنازة القتيل .

ولما عمّ الظلام تجمع عدد كبير من رجال حارة السعدي في أحد البيوت . وتكلم رجال كبار في السن كلاما منمقا رصينا يحضّ على تناسي الاحقاد . ثم تصافح أبو شكور وأبو كاسم وتعانقا وقبل كل منهما الآخر وسط التصفيق والتهليل ، وجلسا متجاورين ,واحتسيا كؤوسا من العرق وهما يتبادلان كلمات المجاملة . وعندما سكرا بدا لهما كل ما كان بينهما من خلاف لا اكثر من طيش أولاد .

ووضع أبو كاسم يده على كتف أبو شكور بحركة ودية، وقال له بصوت ذي نبرة صادقة : « والله يا أبو شكور أنت سيد الرجال » .

فرد أبو شكور قائلا باستنكار وخجل : « انا ؟! أعوذ بالله ! من أكون اذا قورنت بالرجال ؟ » .

قال أبو كاسم : « ولو ؟! انت رجل حارتنا . كلنـــا نذكر ما فعلت يوم هاجم حارتنا رجال حارة مرجان » .

فأشار ابو شكور بيده الى الرجال في الغرفة ، وقال : « ما فعلته يستطيع اي رجل ان يفعـــله . اما اذا قورنت بالرجال الرجال فمن أكون ؟ مجرد رضيع . أتذكرون ابي ؟ »

فتصاعدت من حوله اصوات تردد :

« رحمة الله عليه » .

« أسكنه الله فسيح جنانه » .

« الفاتحة . . » .

قال ابو شكور : « المرحوم كان رجلا لا يشبه غيره من الرجال ولا يمكن نسيانه . كـــان يحب السكر والغنـــاء والنســـاء » .

فصاح واحد من الرجال بصوت ثمل : « وأنا أيضا والله أحب النساء » .

ضحك الرجال بمرح ، وتعالت صيحات يقول اصحابها انهم جميعا يحبون النساء مثل المرحوم .

قال ابو شكور : « كان المرحوم كما تذكرون يحب ايضا المشاجرات . يضرب ويختفي ولا يمسكه شرطي » .

فأيده الرجال مرددين كلمات الاعجاب بذلك الرجل ، ثم تحادثوا عن رجال ماتوا ، وكانوا قادرين في آن واحد ان يبكوا كأطفال وان يقتلوا بهدوء من يشرب ماء .

واستمرت السهرة صاخبة مرحة حتى نفد العرق والطعام، وحينئذ تفرق الساهرون متبادلين التحيات .

وغادر ابو شكور البيت ، ومشى في حارته بخطـوات

مترنحة متثاقلة دون ان يستطيع نسيان أبيه . وتذكر يوم كان صبياً صغيرا ورجع الى البيت باكيا لان أولاد الحـارة اعتدوا عليه ، فضربه أبوه ضربا مؤلما ، وقال له : « البكـــاء للنساء لا للرجال » .

ولما شجّ اول مرة رأس ولد يكبره في السن ، كافأه أبوه بشراء حذاء جديد له .

واستمر ابو شكور في سيره المتمهل الثمل ، وتوقف لحظة شاهد رجلا يحمل عودا ويمشي مترنحـا ، فاعترض طريقه قائلا له بلهجة مهددة آمرة : « قف . . ولا . . » .

قال حامل العود بصـــوت خائف : « ها انذا وقفت . تأمر ابو شكور » .

قال ابو شكور متسائلا بجفاء : « انت تعرفني ؟! انـا لا اعرفك فكيف تعرفني ؟! » .

قال حامل العود : « الم تعرفني ؟ غنيت في سهـرات كثيرة كنت فيها » .

فحملق أبو شكور الى حامل العود ثم قال : « تذكرتك. انت . . انت . . اف ! نسيت اسمك » .

قال حامل العود : « انا ابو سمير » .

قال ابو شكور : « الآن تذكرتك . . انت فعـــلا ابـو سميــر » .

— « نعم نعم . . انا ابو سمير » .

— « أين كنت ؟ » .

— « في سهرة » .

— « كيف كانت ؟ » .

ـ « سهرة زفت . الاكل قليــــل والعرق مغشوش والشباب لا يعجبهم العجب » .

ـ « والى اين ذاهب الآن ؟ » .

ـ « الى البيت طبعا » .

وارتفع في تلك اللحظة صوت المؤذن من مئذنة قريبة داعيا الى صلاة الفجر ، فنظر أبو شكور الى السماء ، وقال لابو سمير : « مؤذن جاهل . يؤذن آذان الفجر بدلا من آذان العشاء . الله يصلحنا » .

قال أبو سمير بصوت متملق : « آمين » .

فقطب ابو شكور جبينه مفكرا ، وحدق الى ابو سمير ثم قال له : « هيا اتبعني .. الى أين ؟ لا تسأل.. والا ... »

قال أبو سمير : « أمرك أبو شكور أمرك » .

وسلك ابو شكور زقاقا ضيقا سائرا بخطى قصيرة سريعة ، وتبعه ابو سمير مهرولا ، حتى بلغا باب مقبرة الحارة ، وعندئذ صاح أبو شكور وهو يهم بالدخول الى المقبرة : « الحقني » .

قال ابو سمير : « ماذا تريد أن تفعل بي ؟ أنا رجل مسكين لا اؤذي نملة » .

فالتفت اليه ابو شكور قائلا بشراسة : « الحقني والا عدت اليك . انت تعرفني وتعرف ماذا افعل بمن يضايقني »

فبادر ابو سمير الى دخول المقبرة ، وتبع أبو شكور متعثر الخطى مرتجفا ، يبسمل بصوت مرتفع .

ومشى ابو شكور وسط القبور البيض ، ثم توقف عند واحد منها وجلس عليه ، واشار الى قبر قبالته ، وقال لابو سمير : « اجلس هنا » .

فأطاعه أبو سمير ، وحاول الكلام ، ولكن ابو شكور قال له : « اخرس » .

واشار بسبابته الى قبر بجواره ، وقال : هذا قبر ابي، يرحمه الله .. هيا نقرأ الفاتحة ونهبها لروحه » .

وبسط راحتيه وراح يتلو الفاتحة ، بينما كان ابو سمير يضع العود على الارض ، ثم يرفع راحتيه نحو وجهه، ويحاول تلاوة الفاتحة ، ولكنه يكتشف انه نسي كلماتها ، فيكتفي بتحريك شفتيه متصنعا الخشوع .

ولما انتهى ابو شكور من تلاوة الفاتحة ، لمس وجهه براحتيه ، فسارع أبو سمير الى تقليده .

ومسح أبو شكور وجهه بمنديل من قماش ثم تمخط فيه ووضعه فيجيبه ، وقال وهو يشير الى قبر ابيه : « الوالد كان يحب الغناء والطرب . وانا أريد الليلة ان يسمع ما حرم منه ويطرب قليلا . هيا اعزف على عودك و ... » .

فظل ابو سمير متجمدا ، فقال أبو شكور بغضب : « الم تسمع ما قلت ؟! هيا تحرك والا كسرت عودك على راسك » .

قال أبو سمير وهو يرتعد : « أبو شكور .. دخيلك .. أنا والله ... » .

فقاطعه أبو شكور قائلا بنزق : « انا والله سأدفنك الليلة في قبر اذا لم تطعني وتفعل كل ما اريد » .

قال أبو سمير مداريا : « تأمر أبو شكور .. لا تزعل.. أنا في خدمتك .. لا حول ولا قوة الا بالله » .

قال أبو شكور : « هيا اذن اسمع الوالد قليلا من التقاسيم » .

فتناول ابو سمير عوده ، واحتضنه ، وامسكت اصابع يده اليمنى بالريشة ، وضرب بهـا على الاوتار عدة ضربات ، ثم تجمدت يده ، فقال ابو شكور : « لماذا توقفت ؟ » .

قال ابو سمير : « تريد الحقيقة ؟! أنا خائف . . ويدي لا اسيطر عليهـا وترتجف غصباً عني » .

« ـ خائف ؟! الرجال لا يخافون وانت رجل . عيب ان تخاف . اتخاف وانت مع ابو شكور . لا عاش الخوف » .

واخرج ابو شكور من جيبه زجاجة مليئة بالعرق الممزوج بالماء ، ونزع سدادتها ، وقدم الزجاجة الى ابو سمير قائلا : « خذ . . اشرب . . هذا عرق اصلي سيجعلك لا تخشى عفاريت الارض كلها » .

فتناول ابو سمير الزجاجة ، ورفعها الى فمه ، وجرع منها جرعة كبيرة ثم اعادها الى ابو شكور الذي مسح فمها براحته ثم شرب منها ، وقال : « هيا ابدا بالتقاسيم واسمع الوالد ما يفرح قلبه ، واجعله في قبره يرضى عني ويقول : آه » .

وابتدأ ابو سمير بالعزف على العود ، فهز ابو شكور راسه يمنة ويسرة معجبا ، وقال : « آه . . تسلم يدك . . اكمل » .

فسر ابو سمير سرورا خفيا جعله يتناسى قليلا خوفه واضطرابه ، وبات يعزف بثقة اكثر ، فصاح ابو شكور : « يا عيني عليك يا . . الاسم الكريم ؟! » .

« ـ ابو سمير » .

« ـ لعنة الله على النسيان . ابو سمير . . ما رايك في موال ؟ »

« ـ تأمر ابو شكور » .

وعزف ابو سمير قليلا على العود ثم تعالى صوته اجش ، وكان في البداية مرتبكا متهدجا ثم ما لبث ان استعاد شيئا فشيئا هدوءه :

ياليلي ياليلي ياليلي ياعيني

فهتف ابو شكور بصوت ممطوط : « آه . . آه . . » .

ومد يده بزجاجة العرق الى ابو سمير الذي شرب منها بنهم ، وارجعها الى ابو شكور وهو يقول : « تشكر يا ابو شكور تشكر » .

ضحك ابو شكور ، وقال : « صحة ! هكذا يشرب الرجال » .

وعاود ابو سمير غناء مواله :

يللي انكتب على الجبين لازم تشوفو العين

صاح ابو شكور : « صحيح والله صحيح . تابع ابو سمير تابع » .

واحس ابو سمير بصدق اعجاب ابو شكور ، فانتشى وتلاشى خوفه ، واستمر في الغناء بصوت خشن .

وعندما انتهى الموال ، صفق ابو شكور ، وقال : « الله الله » بلبل انت يا ابو سمير » .

ضحك ابو سمير بغبطة ، وقال : « بلبل لكنه بلا جناحين ويوشك ان يموت » .

فدفع ابو شكور زجاجة العرق الى ابو سمير ، وهو يقول : « اشرب . كلنا سنموت . دنيا فانية . نحن اليوم خارج القبر وغدا من يعلم ما يحل بنا ؟! قد نصير في داخله . اشرب اشرب . حياة بنت كلب ! » .

ورفع ابو سمير زجاجة العرق الى اعلى بحركة قوية ، وقال : « بصحـة ابو شكور شيخ الرجال » .

قال ابو شكور :« تسلم يا ابـو سمير تسلم . متـزوج ؟ »

« ـ لا والله . . وحيد . لا زوجةولا ولد . لا ام ولا اب» .

« ـ ولماذا لا تتزوج ؟! »

« ـ من المجنونة التي تقبل بالزواج من واحد مثلي ؟! الشحـاذ افضل مني ، ولم يبق في راسي شعرة واحـدة سـوداء » .

فضحك ابو شكور ، وقال : « المهم يا ابو سميـر ليس الشعر الاسود . انت سيد العارفين : النسـاء ملعونات ، وتعرف طبعا ما يرغبن فيه » .

هز ابو سمير راسه وقـال : « أعرف اعرف . ولكـن يا ابو شكور العين بصيرة واليد قصيرة » .

وضحك الاثنان ببهجة ثم قال أبو شكور : « اخي ابـو سمير . . لا تكن بخيلا . هيا أسمعنا . . » .

ففكر ابو سمير لحظات بينما أصابعه تداعب أوتـار العود ثم قال بادي السرور : « وجدتها » .

وسعل ، ثم انساب صوته خافتا ، يرافقه العود :

سبع آهات ممزوجـه بلب الكلام
الاوله آه مـن فعلك معي يا شـام

فعقد ابو شكور ذراعيه على صدره ، وانصت عـابس الوجـه .

والثانيـه يا حيف ضيعت أيـامي

فصاح أبو شكور مقاطعـا بصوت منتش : « يا حيف يا ابو سمير يا حيف . . » .

شبه السحابه الريـح يذريهـا
والثانيـه يا حيف ضيعت ايـامي
ودربي كحـد السيف يا شام قدامي

وهز ابو شكور راسه ,وقد استولى عليه الاكتئـاب ، وتجرع من زجاجات العرق جرعات متلاحقة ، بينما كـان أبو سمير يتابع الغناء :

يا خلجة المـدبوح يا رعشة التلفـان
مبنىسفينة نـوح شولو سببداعي

وصاح أبو شكور : « آخ يا ابو سمير . . هل تريـد أن تبكيني » .

فتوقف ابو سمير عن الغناء ، ومد يده نحو زجاجـة العرق ، ولكن ابو شكور طوح بها بعيدا لترتطم بأحد القبور وتتحطم ، وقال : « فرغت » .

واخرج من جيبه زجاجة ثانية ، وقدمها الى ابو سمير بحركة متفاخرة قائلا : « المؤونة موجـودة ولله الحمد . اشرب . لا شيء في الدنيا له قيمة . اشرب » .

فشرب أبو سمير من زجاجة العرق كمية كبيرة ، ثـم أعادها الى ابو شكور الذي قال : « والآن الا تسمعنا اغنيـة تفرح ، وتجعل القلب يرقص ؟ » .

قال ابو سمير بصوت متلجلج : « على عيني ابو شكور على عيني » .

وعزف العود لحنا مرحا ، وغنى ابو سمير بصوت ثمل :

هز التوتـه يا توات

توتك حلي   يا توات

والتفت الى ابو شكور ، وقال له بلهجة معاتبة : « ما لك ساكتا ؟ هيا عن معي ابو شكور غن » .

هز التوتـــه   يا توات
توتك حلي   يا توات

ورافقه ابو شكور في الغناء ، واتحد الصوتان ، وتعاليا مرحين ممطوطين .

وفجاة بلغت سمعهما صرخة غاضبـة مستنكرة ، فالتفتا نحو مصدر الصرخة ، فأبصرا الحارس الليلي هارعا نحوهما.

وما ان دنا الحارس الليلي منهما وشاهد ابو شكور حتى قال بلهجة ودية : « صباح الخير عمي ابو شكور » .

قال ابو شكور مستغربـــا : « صباح الخير ؟! لماذا ؟ طلعت الشمس ؟! » .

قال الحارس : « ستطلع بعد قليل » .

فقال ابو شكور للحارس وهو يشير الى احد القبور : « اجلس .. اجلس » .

قال الحارس معتذرا وحريصا على مراضاة ابو شكور : « قد تأتي دورية الشرطة في اية لحظة .. » .

فقاطعه ابو شكور قائلا : « لن يأتي احد .. واذا اتـت دورية الشرطة فماذا سيحدث ؟! » .

قال الحارس : « سيخرب بيتي » .

فضحك ابو شكور وقال : « اعرف بيتك ، وان خرب فستتخلص منه وتستريح » .

قال الحارس : « قد افصل من عملي » .

قال ابو شكور ساخرا : « انت مجنون حين تخشى ان تفقد عملا لا يشبعك لقمة الخبز » .

والتفت الى ابو سمير ، وقال له : « ما رأيك يا ابـــو سمير ؟ احك » .

قال ابو سمير : « كلامك يا ابو شكور جواهر » .

فقال ابو شكور للحارس بصوت آمر : « اقعد » .

فأطاع الحارس ، وجلس على واحد من القبور ، فقدم اليه ابو شكور زجاجة العرق قائلا : « اشرب » .

قال الحارس : « والله ... » .

قال ابو شكور : « اشرب ولا تخف مـــن اي شيء .. لا من رؤسائك ولا من زوجتك .. اشرب ولا تهتم بشيء » .

فتناول الحارس زجاجة العرق ، وارتشف منهـــا رشفة صغيرة ، فقال له ابو شكور بصوت محتج : « ما هذا ؟ الشرب بقدر المحبة . اشرب » .

فتجرع الحارس جرعة كبيرة .. عندئذ قال ابو شكور لابو سمير : « هيا يا ابو سمير .. اكمل » .

فعاود ابو سمير العزف على العود ، وغنى :

هز التـــوته يا توات

قال ابو شكور للحارس : « هيا غن معنا . ساعة الفرح حين تأتي لا ترجع » .

وتعالى صوتا ابو سمير وابو شكور ، ثم انضم اليهما صوت الحارس مضطربا ، ولكنـــه تخلص بعد قليل مـــن اضطرابه ، لتصير الاصوات الثلاثة صوتا واحدا خشنا قويا مرحا يستقبل صباحا ذا شمس تشرق على أحياء واموات .

لا غيمة للاشجار
ولا اجنحة فوق الجبل

اعتقلوه ليلا لحظة كان يمزق صورة ملصقة على حائط، وكانت لرجل ملتح ، وديع الوجه ، صارم العينين .

واقتادوه سريعا الى قبو عتيق ، عفن الجدران ، مكتظ بالطاولات والكراسي ، وهناك تحلقوا حوله وجوها مقطبة ، واعينا ترمقه بسخرية وفضول .

سأله واحد من الرجال الاربعة : « ما اسمك ؟ » .

ــ « سهيل .. سهيل بدور » .

ــ « وعمرك ؟ » .

ــ « عشرون سنة » .

فقال الرجل لزملائه بدهشة : « انظروا .. انظروا اليه. انه أجمل من البنات » .

فمد رجل آخر يده ، ولمس وجه سهيل ، وقال باعجاب: « آخ ما انعم جلده ! » .

وقال رجل ثالث : « لحمه شديد الطراوة » .

فقال الرجل الرابع بلهجة هازئة : « العمل أولا يا رجال. انسيتم ان علينا التحقيق معه لا رسمه » .

قال الرجل الاول وهو يبتسم : « لن تخرب الدنيا اذا تأجل التحقيق معه حتى الصباح ، فساعة لقلبك وساعة لربك » .

وتدانت رؤوس الرجال الاربعة ، وتهامسوا ، ثم تضاحكوا بمرح وصخب ، واخبروا سهيلا بما يريدون ، فبوغت ، وتراجع مذعورا مستنكرا ، ولكنهم سارعوا الى تهديده باللجوء الى القوة اذا رفض، وانتصبوا امامه مشدودي القامات ، قساة ، واعينهم متحفزة فظة شرسة ، فتضاءل الهواء في رئتيه ، وفقد صوته ، ووهنت قواه ، وتحول الى جسد مرتعش وعينين ضارعتين ...

وغمره خجل عارم ، فأغمض عينيه وهو يعض بأسنانه على شفته السفلى ، ولم يفه بكلمة عندما سأله أحد الرجال بصوت لاهث متهدج : « لماذا مزقت الصورة ؟ » .

وقال رجل الصورة لمدن محنية الظهر : « الحياة الدنيا فانية لا خير فيها ، ولا تعطي الا الجوع والاتراح ، فالصبر الصبر يا فقراء ، فلكم وحدكم الجنة بعد الموت .. » .

وابصر سهيل الارض حديقة شاسعة خضراء واطفالا يركضون مرحين تحت سماء زرقاء ، وابصر الجائعين يهدمون القبور ويبنون فوقها بيوتا لهم وللشمس والهواء ، فاندفع دما غاضبا ، ومزق بأصابع نزقة صورة الرجل الملتحي الوديع الوجه الصارم العينين ، الملصقة على حائط ، فحاصره توا

أربعة رجال ، وحملته سيارتهم بعيدا عن أشجار الشـوارع والليل ونجومه الدائمة الارتجاف .

وجلس الرجال الاربعة على الكراسي، يدخنون السجائر، وظل سهيل واقفا دونما حراك، محني الراس، يحملق في ارضية الغرفة الوسخة ، حتى طلبوا منه الجلوس على كرسي ، فأطاع ، وقدم له أحدهم سيجارة ، ثم اشعلها بعود ثقاب وهو يبتسم بود .

وتحدث الرجال الاربعة بأصوات متذمرة عن ارتفاع أسعار الخبز واللحم ، وبدوا لعيني سهيل وديعين متعبين يكبتون رغبة قوية في النوم ، ثم نهض أحدهم فجأة ، وغادر الغرفة ، وعاد حاملا بطانية ، وفرشها على ارضية الغرفة ، وطلب من سهيل التمدد عليها ، والتفت الى زملائه متسائلا بزهو : « اليست فكرتي عظيمة ؟ » .

فندت عنهم صيحات استحسان وترحيب .

واستلقى سهيل على البطانية ملصقا وجهه بصوفها الخشن ، وارتجف وهو يبصر الارض تغطيها مشانق تتدلى منها جثث عارية صغيرة وانتظر بلهفة وخوف ما سيحدث.

الابتسامة

أوقظ من نومه في الفجر ، واخرج من زنزانته ، واقتيد الى ساحة تنتصب فيها أوتاد خشبية متباعدة ، واوثق الى أحدها ، فقال بصوت خشن : « لست جبانا. لا أريد أن تعصب عيناي . أريد أن اشاهد ما يحدث » .

فلم يؤبه لقوله ، وعصبت عيناه بقطعة قماش أسود ، ثم سمع أحذية ثقيلة تضرب الارض بقوة ، فارتجف ، وركض الى البيت الذي ولد فيه ، ودخله مذعورا لاهثا ، وصاح : « أمي.. أمي .. » .

فلم يجب أحد ، فقال لنفسه : لعلها نائمة !

واتجه الى الغرفة التي تنام أمه فيها ، فالفى بابها مفتوحا ، وأبصر أمه عارية تحت رجل غريب ، فشهق مرتعدا وحاول التراجع والاختفاء ، ولكنه أخفق وتجمد في مكانه .

وفجأة لمحته أمه ، فقالت له بصوت حاد مرتعش : « استح وكف عن الحملقة كأبله . هل تشاهد فيلما ؟! هيا

اذهب والعب في الحارة ولا ترجع الى البيت الا حين اناديك » .

ففادر البيت ، وركض قاصدا الساحة التي تنتصب فيها أوتاد خشبية متباعدة ، فأوثق الى احدها ، وقال بصوت متوسل : « اريد الا تعصب عيناي . أريد أن اشاهد كيف سأنتحر » .

فلم يؤبه له ، وعصبت عيناه بقطعة قماش اسود ، ثم سمع صوتا صارما يصدر أمرا تلاه دوي رصاص اصطدم بجسمه وملأه ثقوبا دامية ، فابتسم ساخرا ، غير ان طلقة اخترقت سريعا راسه ، ومحت الابتسامة .

ملخص ما جرى لمحمد المحمودي

كان محمد المحمودي رجلا هرما ، يعيش وحيدا في بيت صغير ، فلا زوجة له ولا ولد ، ولم يكن لديه ما يفعله اثر احالته على التقاعد ، فما ان يقبل الصباح حتى يغادر البيت ، ويمشي في الشوارع وئيد الخطى ، ويتوقف لحظات ليشتري جريدته المفضلة ، ثم يستأنف مشيه المتباطىء متجها الى مقهى لا يفصله عن الشارع الصاخب الا حائط من زجاج . وحين يبلغه ، يدلف الى داخله ، ويقصد طاولة معينة تتيح له التفرج على الشارع ، ويجلس منتظرا دونما كلام النرجيلة وفنجان قهوة دون سكر . ثم يخرج من جيبه نظارة يضعها على عينيه ، ويستغرق في قراءة الجريدة ، مدخنا النرجيلة ، متطلعا بين الحين والحين الى الشارع بعينين ذاهلتين .

وكلما جاع ، ينهض بتثاقل واسف ، ويغادر المقهى الى مطعم قريب ، فيأكل بملل ، ثم يرجع سريعا الى المقهى ليتابع قراءة الجريدة وتدخين النرجيلة واحتساء الشاي والقهوة

والتفرج على الشارع حتى يعم ظلام الليل ، فيترك وقتئذ المقهى ، ويذهب الى بيته ، ويخلع ثيابه ، ويستلقي على سريره العريض ، ويستسلم توا لنوم عميق .

واحيانا كان يشاهد امه أثناء نومه ، وكانت تؤنبه بقسوة لانه لم يتزوج ، وتعول مطالبة بطفل يقول لها : « يا جدتي اشتري لي بالونا » .

فيستيقظ من نومه مكتئبا وخجلا من رغبته في النحيب طويلا .

وفي احد الايام ، كان جالسا في المقهى كعادته ، يقرأ الجريدة ويدخن النرجيلة ، فاذا بأصابعه تفلت فجاة الجريدة ، وتند عنه شهقة ، ويتهاوى ارضا دون حراك ، فاستدعي على عجل الطبيب الذي قرر بثقة انه قد مات ، وعندئذ جاءت المعاول والرفوش تنفيذا لوصيته ، وحفرت حفرة تحت الطاولة التي اعتاد الجلوس اليها ، ثم حمل برفق وسجي في قاع الحفرة ، واهيل فوقه تراب كثير ، فلم يحنق او يتذمر ، انما ابتسم فرحا بخلاصه من المشي في الشوارع والذهاب الى البيت والمطعم ، وانصت بشغف الى احاديث رواد المقهى وقرقرة النراجيل وصيحات الجرسون ، ولكنه كان يشعر ليلا بالضجر والوحشة والخوف ، اذ يخوي المقهى ويقفل أبوابه .

واتى يوم اقتحم فيه المقهى عدد من رجال الشرطة ، واخرجوا محمد المحمودي من حفرته ، واقتادوه الى احد المخافر ، وهناك قال له رئيس المخفر بصوت صارم : « نمي الينا انك تنتقد أعمال الحكومة وتهزأ منها وتسبها وتزعم أن

كل قوانينها لا تخدم الا أصحاب البنايات والسيارات والبطون الكبيرة » .

فهتف محمد المحمودي مرتاعا مستنكرا : « انا اسب الحكومة ؟ اعوذ بالله ! انا لست ممن يشربون من النبع ثم يبصقون فيه . اسأل عني . كنت موظفا مثاليا ، وكنت أطيع الاوامر والقوانين وانفذها بدقة . اسأل عني . لم اسكر يوما ولم أتحرش بامراة ، ولم أؤذ أحدا ، وكنت ... » .

فقاطعه رئيس المخفر قائلا : « ولكن التقارير الواردة الينا بشأنك لا تكذب ، وأصحابها موضع ثقة كاملة » .

ارتعد محمد المحمودي ، وقال بصوت متهدج : « اقسم بالله اني عشت حياتي كلها دون أن أتكلم يوما في السياسة ، ولم اسب طوال عمري لا حكومة ولا حكاما » .

قال رئيس المخفر : « ها ها .. من فمك ادينك . انت قلت انك لم تسب الحكومة ولم تقل انك مدحتها ، افلا تستحق في رأيك المديح ؟ » .

فحاول محمد المحمودي التكلم ولكن رئيس المخفر تابع قائلا : « وحتى اذا كان ما تقوله صادقا فهو أمر غريب جدا لان الناس جميعا تشوهوا وصاروا حاقدين موتورين ، يسبون الحكومة والحكام متناسين وجوب اطاعة اولياء الامر ، وان للسياسة اهلها » .

قال محمد المحمودي بصوت واهن : « هذا صحيح . الجميع يتحدثون في السياسة ولا يتركون مسؤولا في الدولة الا ويلصقون به أشنع الصفات ، أما انا ... » .

قال رئيس المخفر مقاطعا بصوت وديع متسائل :

« وانت في المقهى تسمع طبعا ما يقولون وتعرف اسماء الذين يتكلمون ؟ » .

هز محمد المحمودي راسه بالايجاب ، فابتسم رئيس المخفر وقال : « انت كما يبدو رجل طيب ومواطن صالح ، وانا ارغب فعلا في مساعدتك كي تنجو من التهمة الموجهة اليك ، ولكن عليك ايضا ان تساعدني » .

قال محمد المحمودي بدهشة : « وكيف اساعدك وانا ميت ؟ » .

فضحك رئيس المخفر ضحكة مرحة ثم قال : « الامر بسيط جدا ومسل . اسمع ... » .

وانصت محمد المحمودي الى ما قاله رئيس المخفر ، ثم عاد بعد قليل الى حفرته في المقهى وهو شديد الابتهاج ، اذ بات لديه ما يفعله ، ولم يعد يشعر بالوحشة والضجر والخوف حين يقفل المقهى ابوابه في منتصف الليل ، اذ كان يسارع آنذاك الى كتابة ما سمعه من رواد المقهى محاذرا النسيان .

رندا

- ١ -

دخلت الريح مرتبكة الى مدرسة للبنات الصغيرات ، وقالت لمديرتها : « يا آنسة ... أريد أن أصير تلميذة في مدرستك » .

قالت المديرة بوقار : « أنظمة المدرسة لا تسمح بالموافقة على قبولك تلميذة » .

حزنت الريح ، وهمت بمغادرة المدرسة ، فاستوقفتها بنت صغيرة اسمها رندا ، وقالت لها متسائلة : « لماذا تريدين الانتساب الى المدرسة ؟! » .

قالت الريح : « أريد أن أتعلم الكتابة » .

قالت رندا : « أنت ريح ، فما حاجتك الى تعلم الكتابة ؟ » .

قالت الريح « أريد أن أكتب اسمي على وجه البحار والانهار » .

فضحكت رندا وقالت مغتبطة : « اذن ستصبحين تلميذتي ، واكون انا معلمتك » .
وتعلمت الريح كيف تكتب اسمها ، ولكنها نسيت فيما بعد معلمتها ، اما رندا فلم تنس تلميذتها الاولى .

– ٢ –

كانت رندا جالسة في غرفتها لحظة جاءها عصفور صغير وقال لها وهو يبكي : « ماما .. ماما » .
فسألته بلهفة عن سبب بكائه ، فانباها بأن قطا حاول أن يأكله .
فغضبت رندا ، واقسمت انها ستكره القطط ، ولكنها تجاهلت قسمها لما التقت بقط جائع .

– ٣ –

نظرت رندا الى الغيوم ، وقالت : « انا لا احب الغيوم لانها تحجب الشمس » .
فقالت الغيوم لرندا : « انت تنسين اصدقاءك بسرعة ، فمن بكى متعاطفا معك ليلة بكيت لان اباك سافر ؟! انا التي بكت ولم تترك نجمة دون أن تبللها » .
سمعت رندا ما قالته الغيوم ، فتذكرت اباها المسافر ، وبكت ، وبكت الغيوم ، فابتلت الاعشاب والاشجار ، واجنحة العصافير والشوارع والمباني .
وعندئذ قالت رندا للمطر الغزير : « دموعي بللت وجهي ، وها انت ذا تبلل شعري . سأزعل منك اذا لم تختف فورا » .

فاضطرب الشتاء ، ووضع أمطاره وغيومه ورياحه وثلوجه في حقيبة ، ورحل تاركا رندا تنتظر الصيف كي يمسح دموعها بشمسه الحارة .

– ٤ –

كانت رندا تحب القمر . وليلة يبزغ ، تأبى أن تنام في الوقت المعتاد . وقد قالت لها امها في احدى الليالي مهددة : « اذا لم تنامي فورا ، فسأطلب من القمر أن يغيب »
فقال القمر لرندا : « يا بنت لا تصدقي كلام أمك فلن ارحل واغيب » .
ودهشت رندا لان امها لم تسمع ما قاله القمر وتابعت تهديدها .

– ٥ –

عندما شاهدت رندا البحر لاول مرة ، صاحت بدهشة واعجاب : « ما اكبر هذا النهر ! »
فغضب البحر وقال لرندا بلهجة مؤنبة : « انا نهر ؟! انا بحر . ومن المهانة ان اقارن بكل ما على سطح الارض من انهار » .
فسخرت رندا من كلامه ، واتهمته بالغرور ، ولكنها في السنوات التالية احبت البحر حبا لا يخلو من خوف ، وعرفت ان الانهار لا بد في ختام رحلتها من أن تأتي الى البحر لتتلاشى في امواجه .

— ٦ —

افاقت رندا من نومها ، وقالت للشمس : « صباح الخير » .

قالت الشمس : « انا جائعة . اريد حليبا ساخنا » .

قالت رندا : « أهلي فقراء ونحن لا نشرب الحليب صباحا » .

فشحب وجه الشمس اشفاقا وأسفا .

وفيما بعد كانت الشمس ما ان تتذكر رندا التي لا تشرب الحليب صباحا حتى يشحب وجهها ، فيقول الناس : « ها هي ذي الشمس موشكة على المغيب » .

فتبتسم رندا ساخرة ، فهي وحدها تعلم السر في شحوب الشمس ، وتكتم ذلك السر :

— ٧ —

قالت رندا يوما لخروفها الصغير : « اكبر بسرعة » .

قال الخروف الصغير : « لو كنت تحبينني لما طلبت مني هذا الطلب » .

فأكدت له انها تحبه ، ولكنها تتمنى أن يكبر كي تزهو به أمام رفيقاتها .

وكبر الخروف ، واقتيد الى دكان الجزار ، فانتحبت رندا انتحابا مرا لم ينقذ خروفها من سكين الجزار .

— ٨ —

قالت رندا لاحد الجياد : « لماذا تصرخ ؟ » .

قال الجواد بنزق : « كلامك مضحك مخطىء ، انا لا أصرخ ، انا أصهل » .

قالت رندا : « لا داعي الى الزعل . لماذا تصهل ؟ » .

قال الجواد : « اني أصهل شوقا الى مدينة الجياد » .

قالت رندا باستغراب : « وهل للجياد مدينة ؟! هذا خبر جديد لم يرد في أي حكاية سمعتها » .

قال الجواد : « للجياد مدينة يعيشون فيها أحرارا كالغيوم » .

فتذكرت رندا توا أوامر أمها ومعلمات مدرستها ، فقالت للجواد متوسلة : « خذني الى مدينة الجياد » .

فرفض الجواد قائلا ان مدينة الجياد يوم تطأها قدما انسان ستتحول الى سجن .

قالت رندا متعجبة : « أنا مجرد بنت صغيرة » .

قال الجواد : « ولكنك ستكبرين في الاعوام القادمة » .

زعلت رندا من الجواد ، ولكنها لم تتخل عن حبها للجياد ، وظلت تحلم بالسفر الى مدينتهم .

— ٩ —

حملقت رندا الى المرآة ، ثم قالت لامها متسائلة : « ماما! من اين أتيت ؟ » .

ففكرت الام هنيهات ثم قالت ضاحكة : « اشترينا يوما باقة ورد ، فوجدناك فيها ، وكنت وردة بيضاء صغيرة ، ولما ارتويت من حليب ثديي تحولت الى بنت صغيرة ماكرة » .

فضحكت رندا بمرح ، وصممت علــى ان تشتــري باقة ورد .

ـ ١٠ ـ

سألت رندا البنفسج : « كيف صار لونك جميلا ازرق ؟ »
قال البنفسج : « في القديم كـــانت الارض مكتئبة ، فأمطرت السحب زهرا بلون السماء بدلا من المطر ، فكنت انا ذلك الزهر » .
فحدقت رندا الى السحب السوداء التي تزدحم بهـا السماء ، وانتظرت بلهفة ان تهطل وردا أسود . ولكن الورد الاسود ظل مختبئا في السحب .

ـ ١١ ـ

استلقت رندا على سريرها الصغير متعبة ، وحـاولت ان تنام . فقال الليل لها : « احكي لي حكاية » .
قالت رندا : « لا اعرف أي حكاية » .
قال الليل : « ولكن امك روت لك حكايات كثيرة » .
قالت : « نسيتها » .
قال : « سأزعل » .
قالت : « ازعل » .
فزعل الليل ، وصار أسود .

ـ ١٢ ـ

رسمت رندا شمسا زرقاء وسماء صفراء وحقلا احمر.

فقالت الشمس : « يا لك من بنت بلهاء : لوني اصفـر اصفر . من رأى شمسا زرقاء ؟ » .
وقالت السماء : « الم تنظري الي يوما ؟ فلوني ازرق، ازرق كالبحر » .
وقال الحقل : « بالتأكيد انت جاهلة ! الحقل لونـــه اخضر لا احمر » .
استاءت رندا ، وغمست فرشاتها باللون الاســـود ، وطمست به الشمس والسماء والحقل ، فاختفت الاصوات المحتجة الساخطة .

ثم رسمت رندا غرابا بألوان حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء ، فقال لها الغراب مبتهجا : « اني مطالب بتقـــديم الشكر . لقد سئمت لوني الاسود الحـــزين ، وسأتركك الآن كي تراني الطيور وتحسدني » .
وطار الغراب تاركا رندا وحيدة .

ـ ١٣ ـ

وقفت رندا على رصيف شارع ، وضحكت وهي تحس بحب عارم لكل ما حولها ، وعندئذ حـــدث أمر غامض ، فالاشجار العـــارية الاغصان اكتست بالاوراق الخضراء .. ورحلت الغيوم التي كـانت تأبى التحرك ، وغرد حســـون متناسيا سجنه في القفص المعلق على شرفة احد المنازل .

ولما عادت رندا الى البيت ، روت لامهـــا ما جرى ، فقالت لها الام مقطبة الجبين : « كفي عن الكذب » .
فاكدت رندا لامها انها لا تكذب ، وضحكت ضحكـــة

مفعمة بالحب لكل ما حولها ، فصدقت الام آنذاك ما جرى لبنتها الصغيرة .

ـ ١٤ ـ

لرندا دميتان : قطة سوداء وأرنب أبيض .
قال الارنب للقطة متسائلا بسخرية : « لماذا انت سوداء ؟! » .
قالت القطة بنزق وهزء : « ولماذا أنت أبيض ؟ » .
قالت رندا لهما : « كفا عن التشاجر » .
قالت القطة : « لو يعلم الارنب من انا لما سخر مني » .
قالت رندا : « قولي له من أنت » .
قالت القطة : « انا بنت ملك » .
قالت رندا وهي تبتسم : « ولماذا صرت قطة ؟ » .
قالت القطة : « صرت قطة لاصبح صديقتك وانام معك في سرير واحد واسليك ساعة تحزنين » .
قال الارنب : « وانا ايضا لو علمت القطة من أكون لاحترمتني أعظم الاحترام ! » .
قالت رندا : « هيا تكلم وقل للقطة من تكون » .
قال الارنب : « انا ارنب كان فيما مضى من السنين يمتلك البراري الشاسعة » .
قالت رندا : « ولماذا تخليت عن براريك وجئت لتحيا في غرفتي الصغيرة » .
قال الارنب : « فعلت ما فعلت كي أقول لك حين تشرق الشمس : صباح الخير » .

فضمت رندا القطة والارنب الى صدرها تغمرها غبطة تشبه قطة صغيرة تلعب بمرح .

ـ ١٥ ـ

غادرت رندا مدرستها ، ومشت في الشوارع بخطى متباطئة ، وفجأة تنبهت الى ان أوراق الاشجار بدأت بالاصفرار والتساقط ، فقالت لاحدى الاشجار : « ما بك ؟ هل انت مريضة ؟ » .

قالت الشجرة : « لست مريضة ولكني متضايقة ومغتاظة » .
قالت رندا : « وما السبب ؟ » .
قالت الشجرة : « انظري الى ما حولك ، كل شيء يتحرك .. الغيوم والسيارات والطائرات والناس ، أما أنا فمحكوم عليّ بألا اتحرك حتى ايبس واتحول الى حطب » .
قالت رندا : « ومن يمنعك من التنقل من مكان الى مكان ؟ » .
قالت الشجرة : « جذوري متغلغلة في التراب ، ولا تسمح لي بأن أفعل ما أشاء » .
قالت رندا : « اذن لا داعي الى النرفزة » .
قالت الشجرة بحنق : « لا أريد سماع نصائح ، ولو كنت مكاني لصرت شجرة سوداء » .

وابتعدت رندا عن الشجرة ، وقصدت الى البيت ، ولما وصلت اليه ، قالت لشجرة الليمون المنتصبة في الباحة : « لماذا لا تصفر أوراقك وتتساقطين ؟ » .

قالت شجرة الليمون : « حين تكبرين ستعرفين السبب » .

فاشتد فضول رندا ، ووجهت الكثير من الاسئلة ، ولكن شجرة الليمون لاذت بالصمت ، فهرعت رندا الى أمها، وطلبت منها بصوت متوسل أن تشتري لها ثوبا أخضر .

— ١٦ —

قالت رندا لصديقاتها الثلاث : « سنلعب اليوم لعبة جديدة » .

فقالت الصديقات الثلاث متسائلات : « أي لعبة سنلعب ؟ » .

قالت رندا : « انا سأكون الملكة » .

قالت الصديقات الثلاث : « ونحن ؟.. » .

قالت رندا : « أنتن شحاذات تجئن الى قصري وتطلبن مني مالا لتشترين خبزا » .

رفضت الصديقات الثلاث أن يلعبن ، وقلن انها لعبة مملة .

فخجلت رندا ، ولكنها بعد قليل اعترفت بأن لعبتها مملة .

— ١٧ —

قالت المعلمة لرندا : « هيا اقرئي الحروف المكتوبة على اللوح » .

اطاعت رندا ، وقرأت بصوت عال : « الف » .

سألتها المعلمة : « حرف الف .. ماذا يشبه ؟ » .

فكرت رندا قليلا ثم قالت : « حرف الف يشبه السيف » .

قالت المعلمة : « كيف ؟! السيف في بلادنا مقوس النصل » .

قالت رندا : « انه فعلا سيف عجوز محني الظهر ، ولكنه دعي الى معركة فرجع شابا » .

ضحكت المعلمة بينما كانت رندا تبصر حرف الف وقد تحول الى ولد مشعث الشعر يركض في الحقول هاربا من حروف اخرى كثيرة تطارده وتحاول امساكه .

— ١٨ —

همت رندا بقطف وردة حمراء جميلة من احدى شجيرات الورد ، فقالت الشجيرة لرندا بضراعة : « لا تقطفي هذه الوردة فأنا احبها أعظم الحب » .

قطبت رندا جبينها ، فقالت شجيرة الورد : « كان وردي قديما ذا لون أبيض ثم صار فيما بعد أحمر ، واذا وعدتني الا تقطفي من وردي حكيت لك عن السبب » .

قالت رندا بفضول : « هيا احكي كيف تحول لونك من أبيض الى أحمر » .

قالت شجيرة الورد : « كنت في قديم الزمان كما قلت لك شجيرة ورد ابيض ، وكان يقال عن وردي انه يشبه الثلج وغيوم الصيف . وفي يوم من الايام جاء رجل وقعد قريبا مني ، وبكى بحرارة ، فسألته عن السبب ، فقال لي ان ثلاثة ايام مرت عليه دون أن يأكل اي طعام ،

فآلمني كلامه ، وقررت مساعدته ، وقلت له : وردي أجمل من الخبز ، فاقطف وردة من وردي واجعلها طعامك ، ولا بد من انها ستسكت جوعك بعض الوقت . فقال الرجل لي : أنت بالتأكيد شجيرة حمقاء ، فهل الوردة الجميلة تشبع معدة جائع ؟ وابتعد عني غاضبا ، فخجلت خجلا عظميا الى حد ان لوني الابيض اختفى ، وصرت منذ تلك اللحظة شجيرة تنبت وردا أحمر اللون » .

لم تقطف رندا الوردة ، ولكنها بعد أيام عندما سمعت في الشارع ولدا يقول لامه باكيا : « انا جائع » ، هرعت الى البيت ونظرت الى المرآة بخوف .

— ١٩ —

حملقت رندا الى حائط عتيق مهترىء متشقق ، فشاهدت رجلا يسعل ويقول لها : « اعطيني ملعقة من دواء السعال » .

وشاهدت زورقا يمخر بحرا متلاطم الامواج، وسمعت بحارته يطلقون صيحات الاستغاثة .

وشاهدت ولدا يتسلق شجرة ، فقالت له ناصحة : « ستقع يا ولد ويسيل الدم من راسك » .

فلم يأبه الولد لنصيحتها ، واستمر في تسلق الشجرة ، ولكنه سقط فجاة ارضا ، وشج راسه ، فبكى وصاح : « بدي ماما » .

وقال الرجل الذي يسعل :« أين دواء السعال ؟ » .

وصرخ البحارة بأصوات متوسلة : « نحن نغرق » .

فذعرت رندا ، وسدت اذنيها بسبابتيها ، واغمضت عينيها ، وعندئذ هدأ البحر وتصايح البحارة فرحين بالنجاة ، وجاءت سيارة بيضاء ، ونقلت الى المستشفى رجلا يسعل وولدا دامي الرأس .

— ٢٠ —

كانت رندا تملك كرة صفراء تحب اللعب ، وقد قذفت بها يوما الى اعلى ، فلم ترجع الكرة ، فآمنت منذ ذلك اليوم ان كرتها الصفراء قد صارت شمسا .

ولما تحدثت المعلمة في المدرسة عن الشمس ، قالت رندا لنفسها : « لا بد من أن أحدهم خدع معلمتي بمعلومات خاطئة » .

واخبرت رندا معلمتها انالشمس هي كرتها الصفراء.

فضحكت المعلمة وقالت : ولكن الشمس .. الم تكن موجودة قبل ان تقذفي كرتك الى أعلى ؟ » .

فوجمت رندا ، واقتنعت ان الشمس ليست كرتها الصفراء ، ولكنها ظلت أمدا طويلا تتساءل بحيرة : « اذن أين كرتي الصفراء ؟! » .

وفي احدى الليالي ، شاهدت القمر اصفر اللون ، فابتسمت مسرورة ، وتلاشى تساؤلها .

— ٢١ —

وقفت رندا في باحة البيت يغمرها ضياء شمس حارة ، وتخيلت الصيف طيرا ضخما يحترق ويطير من

مكـان الى مكـان باحثا عن نهـر ، ولكـن الانهار تطـرده قائلـة : « مائي للبسـاتين خادمك » .

ونظرت رندا الى الشمس متضايقة ، فقالت الشمس لهـا : « ما اسمك يا بنت ؟ » .

فقالت رندا بصوت هازيء : « ولماذا تسأليـن ؟ انت شمس ام انك شرطي ؟! » .

قالت الشمس بدهش : « اتسخرين مني ؟ » .

قالت رندا : « انا اسخر منك لانك تتكلمين معي وكأني خادمـك » .

قالت الشمس بحنق : « ستندمين يا بنت اشد النـدم ففي المساء سأغيب ولكنني لن اعود في الصباح فيبقـى الظلام ولا يرحل » .

ضحكت رندا ، وقالت للشمس : « لو كنت تذهبيـن مثلي الى المدرسة لما تكلمت كلامـا خاطئا كما تكلمت الان . صحيح انك تختفين في اخـر النهار ولكنك لا بـد عائـدة في صباح اليـوم التالي ولن تستطيعي تنفيذ تهديدك » .

تلاشى غيظ الشمس وحل محله فرح خفـي ، فحتى البنات الصغيرات صرن لا يمكن خداعهن .

— ٢٢ —

شحب وجه رندا عندمـا قالت امها لها :« سأذهب لزيارة جارتنـا المريضة ».

ولكنها تظاهرت باللامبالاة ، وقالت لامهـا بلهجـة متوسلة : « خذيني معك » .

قالت الام متسائلة : « هل تخافين من البقاء وحـدك في البيـت ؟ لا تقولي انك تخافين فقد صرت صبية » .

قالت رندا : « لستخائفة ، وما الذي سأخاف منه؟» .

فابتسمت الام ، وقالت : « لن اغيب طويلا .. مجرد دقائق » .

وغادرت الام البيت ، فأمسكت رندا مجلة ، وراحـت تتفرج على صورهـا الملونة .

وبغتة سمعها صوت يقول : « رندا .. رندا » .

فتطلعت فيما حولها مرعوبة ، فلـم تبصر احدا ، فازداد رعبها ، ولكن الصوت تعالى ثانية قائـلا بتأنيب : « لماذا لا تجاوبين ؟ الا تريدين التكلم معي ؟ » .

قالت رندا : « من الذي يتكلم ؟ » .

وسمعت الصوت يقول : « انا الذي يكلمك » .

فتلفتت رندا مستطلعة ، فألفت الغرفة خاويـة . قال الصـوت :

« انا هنا .. انظري الى النافذة » .

ونظرت رندا الى النافذة ، فابصرت غرابا على حافتها، فشهقت متعجبة ، وقالت : « انت الذي يتكلم » .

قال الغراب بنزق : « لماذا الاستغراب ؟ نعم .. انا الذي يتكلـم » .

قالت رندا : « ولكـن الغربان كمـا اعلم لا تقول سوى: قـاق قاق » .

قال الغراب « نحـن الغربان تقول للكبـار الذيـن يحاولون صيدنا دائما : قاق قاق ، ساخرين منهم ، ولكن الصغار الذين لا يؤذوننـا نحب التحدث معهم » .

وفي تلك اللحظة رجعت الام من بيت الجارة المريضة ، وما ان دخلت الغرفة وابصرها الغراب حتى نعب قائلا : « قاق .. قاق » .

وطار بعيدا ، فضحكت رندا طويلا ، ولاذت بالسكوت عندما سألتها امها عن سبب ضحكها .

- ٢٣ -

سمت رندا جرس الباب يرن بالحاح ، فصاحت امها التي كانت تكنس احدى الغرف : « يا رندا اذهبي بسرعة وافتحي الباب » .

فاطاعت رندا ، وفتحت الباب ، فابصرت شحاذا عجوزا يرتدي ثيابا بالية ، وما رآها حتى مد كفه نحوها قائلا بصوت مرتعش : « اعطوني مما اعطاكم الله » .

وجاء صوت الام من داخل البيت : « من جاء يارندا ؟ » .

قالت رندا بصوت رفيع حاد عال : « شحاذ » .

قالت الام : « ماذا يريد ؟ »

قالت رندا للشحاذ : « امي تقول ماذا تريد » .

قال الشحاذ : « اريد رغيف خبز . انا جائع » .

صاحت رندا : « ماما .. الشحاذ يقول انه جائع ويريد رغيف خبز » .

وظلت رندا متجمدة تحدق الى الشحاذ مرتجفة مذعورة حتى جاءت امها وهي تحمل رغيف خبز ، وقدمته للشحاذ الذي تناوله باحترام ، ورفعه بحركة خاشعة الى فمه ، وقبله ، ثم تمتم بكلمات مبهمة شاكرا ، وابتعد عن باب البيت وهو يمشي بخطى متثاقلة .

واغلقت الام الباب ، فقالت رندا لها : « ماما .. لماذا باس الشحاذ الرغيف ؟ » .

قالت الام : « باسه لانه يحبه كثيرا » .

قالت رندا : « ولماذا يحبه الى هذا الحد ؟ » .

اجابت قائلة وهي تبتسم : « لولا الخبز لمات الناس جوعا » .

ولما عادت الام الى الغرفة التي كانت تكنسها ، قصدت رندا المطبخ ، وهناك امسكت رغيف خبز ، وقبلته ، وعندئذ ارتجفت وكأن قلبها جناحا عصفور سجين في غرفة صغيرة من اسمنت لا باب لها ولا نوافذ .

- ٢٤ -

كانت رندا تقرأ دروسها بصوت مرتفع رتيب بينما امها منهمكة في رفو ثوب .

وتنبهت رندا فجأة الى فراشة بيضاء تحوم في سماء الغرفة ، فتوقفت عن القراءة ، وقالت لامها بفرح : « ماما .. انظري الى الفراشة البيضاء . ما اجملها ! »

قالت الام دون ان ترفع رأسها : « انها تبشر بمجيء الربيع » .

فعاودت رندا قراءة دروسها بصوت مرتفع رتيب ، ولكنها لم تفهم ما كانت تقراه ، انما كانت تعدو في حقول مكتظة بالاشجار والازهار ، تحوم في سمائها الزرقاء فراشات حمراء وبيضاء وصفراء وخضراء .

وتقبل عربة بيضاء تجرها جياد بيض ، وتقف بالقرب من رندا ، ويترجل منها رجل ، ويقول لرندا : « انا الربيع » .

فتقول رندا له :« انت الذي تتحدث عنك كتبي المدرسية ؟» .

فيقول الرجل : « نعم .. انا الربيع » .

فترجوه رندا ان يوقع باسمه على دفترها ، فيلبي طلبها ، غير انه لم يكن يعرف ان يكتب اسمه ، فيكتفي بأن يرسم على دفترها ازهارا واشجارا وعصافير وشموسا مشرقة .

— ٢٥ —

قالت رندا لاحدى صديقاتها :« حينما اكبر سأصير غيمة فارحل من مكان الى مكان » .

قالت الصديقة : « اما انا فسأصير ريحا وارغمك على السير وفق مشيئتي » .

قالت رندا : « لن اصير غيمة ، سأصير نجمة » .

قالت الصديقة : « ولكن النجمة تختفي حين يأتي النهار » .

قالت رندا : « سأصبح وردة » .

قالت الصديقة : « ستقطعك الايدي لتضعك في آنية » .

قالت رندا : « سأصير بلبلا » .

قالت الصديقة : « سيصيدك الصياد ويبيعك لتسجني في قفص » .

فكرت رندا حائرة ثم قالت بثقة : « حين اكبر سأظل بنتا صغيرة اسمها رندا » .

— ٢٦ —

كانت رندا موشكة على النوم عندما سمعت دماها

تحكي عن كنوز تعرف مخابئها ، فارادت ان ترجوها ارشادها الى مخابيء تلك الكنوز ولكن النوم كان اقوى منها فحملها بعيدا عن الدمى .

ولما افاقت من نومها صباحا تذكرت حديث دماها عن الكنوز ، فسارعت تسألها عنها ، فظلت الدمى ساكتة ، فاغتاظت رندا ، وانبأت امها بما جرى ، فقالت الام لها : « انها تكذب ، ولو كانت تعرف مخابيء الكنوز لاشترت ثيابا جديدة وسيارات ، ولما قبلت العيش معنا » .

ولما جاء الليل واغمضت رندا عينيها محاولة النوم ، سمعت دماها تتكلم عن كنوز ، فابتسمت بهزء ،واستسلمت لنوم عميق ذي احلام بعيدة عن الكنوز .

— ٢٧ —

حدقت رندا باعجاب الى طائرة فضية اللون كانت تعبر الفضاء الازرق ، وتابعتها بنظراتها حتى اختفت ، ثم اسندت ظهرها الى الحائط ، واغمضت عينيها ، فجاء ملك يمتطي صهوة جواد اسود ، وقال لرندا : « انا عطشان » .

فقدمت رندا له ماء باردا ، فشرب الملك حتى ارتوى، ثم قال لرندا : «انت انقذت حياتي من الهلاك فاطلبي ما تشائين » .

قالت رندا دون تردد :« اريد ان اطير ».

فأصدر الملك اوامره ، فبادر علماء مملكته الى تنفيذ اوامره ، وصنعوا جناحين جميلين قدمهما الملك لرندا وهو يقول :

« طيري كما ترغبين » .
وطارت رندا كما يطير السنونو وعصفور الدوري والطائرة ، ولكن صوت امها بلغ سمعها مناديا بالحاح ، ففتحت عينيها فوجدت نفسها ملتصقة بحائط ، منتظرة بلهفة مقدم ملك عطشان .

— ٢٨ —

كانت رندا تمشي في سوق مزدحمة ، فشاهدت حمارا يقف بالقرب من الرصيف ، تثقل ظهره اكياس مليئة بالحطب ، فتوقفت ، وسألته قائلة : « انت الحمار ؟! ».
قال الحمار بصوت ساخط :« نعم .. انا الحمار ، فمن خدعك وقال لك اني غزال او شحرور ؟! ».
قالت رندا : «ماذا تأكل ؟ » .
قال الحمار : « افطاري حلوى وغدائي لحم مشوي اما في المساء فلا اكل شيئا تنفيذا لتعليمات طبيبي الخاص » .
قالت رندا : « واين تنام ؟ » .
قال الحمار : « أنام في افخم فندق » .
قالت رندا بلهجة موبخة : « انت حمار سيء الاخلاق . اسالك بتهذيب فتجاوب هازئا بي ؟! ».
قال الحمار بنزق : « ضعي على ظهرك هذه الاكياس الثقيلة ثم جاوبي افضل من أجوبتي » .
فسكتت رندا ، وفيما بعد عندما شتمها احدالاولاد وسخر منها واتهمها بانها تشبه الحمار ، لم تغضب وضحكت ضحكا ارغم خصمها على الدهشة .

— ٢٩ —

عندما كانت رندا نائمة ، ركضت في بستان مكتظ بالاشجار وتنبهت بغتةالى ان طيرا ابيض ضخما يطاردها ، فذعرت ، وارادت ان تستغيث ولكنها اخفقت ، وانقض الطير عليها وحملها وطار بها ، فقالت بصوت مبتل بالدموع : «ماما .. بابا ».
فقال الطير الابيض لها : « لا تخافي » .
واستمر الطير الابيض في طيرانه حتى بلغ مدينة بيوتها بيض وتسكنها طيور بلون الثلج ، ولم تبصر رندا اي انسان .
حط الطير الابيض على الارض ، وقال لرندا : « ستعيشين الان سعيدة ، فهنا لا مدرسة ولا معلمات ولا دروس ولا امهات يأمرن » .
فرحت رندا،ولكنها ما ان تذكرت امها وبيتها وحارتها ورفيقاتها ومدرستها حتى وجدت نفسها تبكي بكاء مرا ، وبدت لعينيها البيوت البيض وطيورها قبورا مخيفة ، وبذلت جهدا حتى تمكنت من ان تستيقظ من نومها ،وكان الليل لا يزال مهيمنا ، فمسحت دموعها ، وتمنت ان يأتي الصباح سريعا لتركض في حارتها وتقرع ابواب بيوتها متلهفة الى سماع الاصوات الغاضبة المؤنبة .

— ٣٠ —

تعرف رندا الكثير من الكلمات غير انها كانت تحب كلمة « نهر » حبا غامضا .

وفي يوم من الايام ، رددت بصوت خفيض مفعـــم بالنشوة : « نون .. هاء .. راء » .

وتلاقت الاحرف الثلاثة معا ، لتصبح نهرا من نجوم، ونهرا من اشجار ، ونهرا من بنات صغيرات يركضن تحت المطر ، ونهرا من تفاح احمر ، ونهراً مــن قطط وعصافير، ونهــرا من ذهب .

وها هم الناس يتراكضون نحــو نهـــــر الذهب، ويتشاجرون ،وكل منهم يبغي الحصول على اكبر كمية مــن الذهب ؛ فتغضب رندا ، وتسارع الى تخيل نهر من خبز، فيهرع اليه اطفال صفر الوجوه ، هزيلو الاجسام، فيضمحل غضب رندا ، وتزداد حبا لكلمة « نهر » .

— ٣١ —

اغمضت رندا عينيها ، فحل ليل اسود ، ثم فتحــت عينيهــا ، فسطع نهار ذو شمس مضيئة .

ضحكت رندا مبتهجة ، فها هي ذي قد باتت قوية ، يطيع الليــل والنهار اوامرهــا دون تمهل .

— ٣٢ —

فرحت رندا عندما اشترت لها امُها تمثالا خشبيـــا لغــزال صغير .

ولما رجعت الى البيت ، سارعت الى غرفتها ،ووضعت الغزال الخشبي على سطح طاولة .

قال الغزال الخشبي : « ازيحي الستارة عن النافذة فانا لا استطيع العيش دون شمس وهواء » .

صاحت رندا بدهشة : « ما هذا ؟! غزال من خشب ويتكلــم ؟! »

قال الغزال الخشبي : « اضطررت الى ان اصبح غزالا من خشب حتى لا يقتلني الصيادون ويأكلوا لحمــي فلا احــد يأكــل غزالا من خشب » .

اعجبت رندا بذكاء غزالها ، وصارت منذ تلك اللحظة تنظــر الى كل مــا هو من خشب على انه هارب ، استخدم ذكاءه للنجــاة من الموت .

— ٣٣ —

يموء القط،ويقول لرندا :« جعت وحان وقتغدائي ».
فتسأله رندا : ولماذا تريد ان تأكل ؟» .
يقول القط : « اي شيء يؤكل . ارحببقطعة خبز ».
تقول رندا : « سأحضر لك قطعة خبز » .
فيقول القط : « لا لا ... تمهلي ..لا اريد قطعةخبز.
ساجد صعوبة في مضغها وابتلاعها. اريد قليلا من الحليب ».
تقول رندا : « سأجلب لك صحنا مليئــا بالحليب » .
يقول القط : « الحليب لذيذ الطعم ولكــن الجبـــن افضل كمــا اعتقد ».
تقول رندا : « ستنال قطعة كبيرة من الجبن » .
يقول القط : « لا . لا .. من المؤكــد ان اللحم نافع للجســم اكثر من الجبن » .

تقول رندا : « ساتعرض لتوبيخ امي من اجلك واسرق لك قطعة من اللحم النيء » .

يقول القط : « ما دمت مستعدة للتضحية من اجلي فأريد عصفورا حيا او فأرا فأكل واتسلى في وقت واحد » .

فتصيح رندا نافدة الصبر : « ابتعد عني والا ضربتك فانا لست امك ، ولن اقدم لك اي طعام مهما توسلت او بكيت » .

فيسكت القط قليلا ثم يقول بصوت خافت ذليل : « تكفيني قطعة صغيرة من الخبز ، ولن اتذمر اذا كانت يابسة » .

فتحضر رندا قطعة خبز ، وترميها للقط ، فيتلقفها بلهفة وغبطة ، ويشرع توا في اكلها بشراهة بينما رندا تراقبه مدهوشة ودون ان تعرف السبب الذي جعلها تشعر في تلك اللحظة انها في مدرستها تنصت لدرس مهم من معلمتها .

— ٣٤ —

قالت رندا لامها المنهمكة في طهو الطعام : « سأقف قليلا عند باب البيت » .

قالت الام : « اذهبي ولكن اياك والابتعاد عن البيت » .

وقفت رندا عند باب البيت ، تتفرج على المارة : فدنا منها ولد صغير ، اسمر الوجه ، وديع ، وقال لها : « تعالي العبي معي » .

فتأملته رندا ، فبدت قامته قصيرة بطول قلمها

الرصاصي ، فقالت له بجفاء : « انا لا اعرفك فلماذا تتكلم معي ؟ » .

فاكتأب الولد ، واحمر وجهه ، وهمّ بالمسير ، فقالت رندا له : « ما اسمك ؟ » .

قال الولد وقد ابتهج وجهه : « احمد » .

قالت رندا : « اسمي رندا » .

قال الولد : « اختي الكبيرة اسمها سلمى » .

قالت رندا : « انا لا اخوة لي » .

قال الولد بتأفف : « اخوتي كثيرون الى حد انني لا احفظ اسماءهم » .

فشعرت رندا بحزن مباغت غريب دفعها لان تترك الولد وترجع الى داخل البيت ، وهناك لم يفارقها حزنها الغريب .

قالت شجرة الليمون : « انا سأصبح اختك » .

وقال عصفور : « وانا سأصبح اخا لك » .

وقال الشتاء والخريف والربيع والصيف : « نحن اخوتك » . ولكن رندا ظلت خاضعة للحزن الغريب القاسي الذي لم تعرفه من قبل .

— ٣٥ —

امسكت رندا قلمها الرصاصي ، واوشكت ان تكتب ما تعرف من حروف على ورقة بيضاء ، فقالت الورقة البيضاء لها :

« اتركيني بيضاء » .

قالت رندا متسائلة بتعجب : « ما هذا الطلب الغريب ؟! » .

قال القلم الرصاصي : «لا داعي الى سؤالها ، وسأكتب ما اشاء ولن تستطيع ان ترفض » .

قالت الورقة البيضاء : « انا لا اتحدث مع قلم مجنون مثلك » .

قال القلم الرصاصي : « جاء حتما آخر الزمان وعشت حتى سمعت ورقة تافهة تسخر مني وتتهمني بالجنون » .

قالت الورقة البيضاء : « انا تافهة ؟! اتسبني ايها القلم المصنوع من خشب عتيق ؟» .

قال القلم الرصاصي : « وانت ؟! هل انت مصنوعة من ذهب وفضة ؟ » .

قالت رندا بصوت مفعم بالسأم :« يا لكما من ثرثارين ! » .

ورمت القلم الرصاصي فوق الورقة البيضاء التي صاحت محتجة : « اتجرؤ على ضربي ؟! سأشكوك الى من يعرف كيف يؤدبك » .

قال القلم الرصاصي : « ومن يكون ذلك القادر على تأديبي ؟ » .

قالت الورقة البيضاء :« انسيت صديقتي المبراة ؟ سأجعلها تاكلك دون رحمة » .

قال القلم الرصاصي بذعر وعتاب : « نحن نتناقش نقاشا وديا فلماذا الغضب والتهديد ؟ اهكذا تعاملين اصدقاءك وتتناسين الاشهر الجميلة التي عشناها معا ؟ »،

قالت الورقة البيضاء : « اذا اردت الا تثير غضبي فلا تتدخل في شؤوني الخاصة » .

فصمت القلم الرصاصي ، فعاودت رندا امساكه ، وقالت للورقة البيضاء بفضول : « لماذا لا تريدين ان اكتب عليك » .

قالت الورقة البيضاء : « كانت امنيتي طول حياتي ان اصبح سائحة تتجول في انحاء العالم » .

قالت رندا : « وكيف استطيع تحقيق امنيتك؟انها امنية مستحيلة » .

قالت الورقة البيضاء : « لا لا .. انها امنية تستطيعين تنفيذها بسهولة . انا اذا صرت رسالة ذاهبة الى بلد بعيد فسيتاح لي الطواف في بلدان كثيرة وركوب السيارات والطائرات » .

قالت رندا : « تفكيرك سليم ، ولكنك نسيت اني لم اتعلم بعد كتابة كلمات تكفي لرسالة » .

قالت الورقة البيضاء : « انتظرت كثيرا وباستطاعتي تحمل المزيد من الانتظار اذا وعدتني بأن تحاولي تعلم كلمات جديدة بسرعة » .

فوعدتها رندا ان تبذل جهدها كي تحفظ بسرعة المزيد من الكلمات ، ولكنها بعد ايام عندما عادت الى غرفتها لم تجد الورقة البيضاء على سطح الطاولة ، والفت النافذة مفتوحة يدخل منها هواء قوي، فأحست بالاسف لان الورقة البيضاء لم تصبر ، ورحلت وحدها ، ودون ان تودعها .

– ٣٦ –

تسير رندا ليلا وهي تمسك يد امها ، وكانت بين

الفينة والفينة تنظر الى اعلى ، فتجد القمر فوقها حتى اقتنعت ان القمر يتبعها .

ولما اخبرت امها بما يفعله القمر ، قالت الام : « لاتكوني مغرورة ، وانت مخطئة اذا ظننت ان القمر يتبعك » .

فرمقت رندا امها بزهو ، وهي واثقة بان القمر لا بد من انه يحب امها اعظم الحب ولا يستطيع الابتعاد عنها في الليالي التي يبزغ فيها .

— ٣٧ —

قالت رندا لامها بلهجة متذمرة : « سئمت القعود في البيت » .

قالت الام : « سنزور جدك . ما رايك ؟ » .

وما ان تخيلت رندا الباحة الفسيحة لبيت الذي يسكنه جدها ،حتى سارعت الى الترحيب باقتراح امها ، ولكن الام قالت لرندا : « يجب ان تعاهديني اولا على ان تقبلي يد جدك حين ترينه » .

فتمتمت رندا بكلمات غير مفهومة ، فقالت امها : « لن آخذك معي اذا ظللت عنيدة كعادتك تأبين تقبيل يده » .

فكرت رندا قليلا ثم قالت منكسة الراس :« سأقبل يده » .

وذهبت رندا مع امها الى بيت جدها ، وما ان شاهدت جدها حتى خفق قلبها حبا له ، ولكنها ظلت متجمدة ، فقالت لها امها هامسة بلهجة معاتبة : « اذن كذبت عليّ ؟! الا تحبين جدك ؟» .

قالت رندا : « انا احبه ولكني لن اقبل يده » .

فابتسمت الام ابتسامة مرة ، وتذكرت ايام كانت طفلة تتكلم كما تتكلم ابنتها ثم صارت الطفلة امراة تحني راسها وتقبل الايدي ، ورغبت في أن تعانق رندا ،وتقول لها : « اياك وان تقبلي يد احد » .

ولكن الام لم تتحرك وظلت واقفة تحدق بحنق الى رندا التي كانت تركض في باحة البيت مقلدة اصوات قطار سريع لا يقف في اي محطة .

— ٣٨ —

كانت رندا لحظة تلصق اذنها بالارض ، تسمع اصواتا عذبة تنشد اغنيات جميلة بلغة مجهولة غامضة .

وفي احد الايام كانت رندا ملتصقة بالارض ، فشاهدتها امها ، وقالت لها متسائلة بفضول : « ماذا تفعلين ؟ » .

قالت رندا : « اني اسمع » .

قالت الام : « ماذا تسمعين ؟ » .

قالت رندا : « اسمع غناء جميلا » .

قالت الام مدهوشة :« ما هذا الحكي الابله؟ هل تريدين ان يقول الناس ان رندا مجنونة ؟! الارض مجرد تراب وحجارة » .

وفي الايام التالية لم تعد رندا تسمع اصواتا عذبة تغني منبثقة من جوف الارض ، وصارت الارض ترابا وحجارة فقط .

- ٣٩ -

لم تستطع رندا الواقفة في شارع اغماض عينهـا او الصراخ او الانتحاب ، انما اكتفت بان ترتجف كورقـة صفراء تواجـه بعناد ريحـا شديدة تحاول اجبارها على التخلي عن شجرتهـا . واستمرت تحدق الى الرجل الذي انقض على امرأة جميلة ثولول ، ورماهـا ارضا ، وشهر سكينا ،واهوى بهـا على عنق المرأة وهـو يطلق صرخـة مديـدة خشنة كأن السكين تطعـن قلبه . ثم نهض واقفا ملطخ اليديـن والثياب بالدم ، وقذف بالسكين بعيدا بحركـة ازدراء ، واشار بيده الى المرأة القتيل ، وقال للناس بفخر : « هذه اختي ، وانا الذي ذبحها وغسل عاره » .

عندئذ اختفت رندا .

الاغتيال

- ١ -

ولجت حديقة الاشجار العارية الاغصان ، وهناك رايت حبيبتي نائمة ، فقلت لها : « استيقظي ، فقد آن لنا الرجوع الى بيتنا ، واذا وجدناه مهدما فسأبني بدلا منه بيتـا مـن حجر ابيض وأزرع حوله الورد الاحمر والاصفر » .

وقلت لها : « سأطرق ابواب مملكة النوم بقبضة شحاذ » .
وقلت لها : « لن ارحل وحدي وسأنتظرك » .
فقيل لي ان حبيبتي ميتة وليست نائمة ، فسألـت مرعوبا : « وكيف ماتت ؟ »

فقيل لي انها قد قتلت ، فسألت وقد تزايـد رعبـي : « ومـن قتلهـا ؟ » .
فقيل لي : « أنت قاتلهـا » .

فاختبأت في جسد حبيبتـي ، واغمضت عيني ، واستسلمت للنوم تغمرني الطمأنينة ، واستمر نومي يومـا او

سنة او مئة سنة ثم استيقظت على أصوات خشنة تقول لي : « ابتعد فقد تمّ حفر قبرها وآن دفنها » .

فصرخت مستغيثا مناديا حبيبتي ولكنها ظلت دونما حراك ، فتذكرت وانا متشبث بلحمها البارد عصفورا صغيرا ابيض رايته يوما ينطنط من غصن الى غصن فرحا بضياء الشمس ، ولكن العصفور مات ، وماتت الاغصان ، وماتت الشمس .

– ٢ –

يطاردني رجال لا اعرفهم ، فاختبيء في جسد حبيبتي، ولكن الرجال يجيئون سريعا قساة غاضبين ، ويقتحمون غرفة حبيبتي ، ويبحثون عني ، فلا يستطيعون العثور عليّ ، فتتجهم وجوههم ، ويهمون بالذهاب ، غير ان احدهم يقول فجأة لحبيبتي :« اخلعي ثيابك » .

فتقول له بدهشة واستنكار : « استح » .

فيقول لها هادئا صارما : « نريد التفتيش بدقة » .

فتخلع حبيبتي ثيابها بنزق ، وتقف جسدا عاريا متحديا ، فيتحسس الرجل لحمها ، ثم يرميها ارضا بحركة مباغتة شرسة . واسمعها تشهق مرتعدة ، وتقول بصوت خفيض : « انت تؤلمني » .

فيزداد الرجل توغلا في جسدها ، ويصطدم بي ، فلا يدهش ، انما يقول لي بصوت فظ متهدج :« اخرج والا اطلقنا النار عليك » .

فأخضع لامره ، ولكنه يظل متابعا بحثه عني ، ثم يتلوه

بقية الرجال ، فاصرخ محتجا ، فيطلب مني السكوت ، فأطيع ، وأراقب ما يجري بعيني ميت .

– ٣ –

حبيبتي المستلقية على سريري وردة بيضاء ، وصوتها الماء يركض مرحاً في الحقول الخضراء .

قالت : « أنا الآن سمكة » .

قالت : « أرغب في قراءة قصة حب » .

قالت : « أكره أمي وأبي » .

قالت : « أحب أمي وأبي » .

قالت : « لن أحب أحداً » .

ولما جاء الليل ، عانقتني بحنان اخت وقبلت خدي ، وعادت الى بيت اهلها ، فخوى السرير ، وشعرت بالخوف ، فاختبأت تحت اللحاف محاولا النوم ، ولكن سكينا مرهفة النصل اقبلت ، وبترت أصابع يدي ، فبكيت ، وقلت : « لن استطيع لمس قطة » .

وراقبت بعينين مفتوحتين مفعمتين بالكراهية والشفقة دمي الذي كان ينزف رويدا رويدا ليتركني باردا فارغ الشرايين .

الفريسة

احترقت الغمامة والموسيقى والورد ودمى الاطفال ، فلم أجد مكانا اختبىء فيه سوى نهر كثير المياه ، وهناك عشت طوال سنوات وحيدا مستسلما لطمأنينة غامضة ، حتى جاء في احد الايام صياد هرم ، فانتشلني بسنارته من قاع النهر ، وحدق اليّ باستغراب واسف ، وقال : « ظننت انك سمكة » .

فقلت له متصنعا المرح : « لا تخطىء فالانسان افضل واروع من السمكة » .

فنظر الى الشمس الآفلة بعينين مجهدتين ، وقال : « مساكين اولادي ، سينامون الليلة دون أن يأكلوا » .

فأحنيت راسي بخجل ، ثم قلت له : « كيف صدقت ما قلته لك ؟ كنت أمزح فأنا سمكة » .

قال الصياد : « ولكن الاسماك لا تتكلم » .

قلت بصوت متهدج : « انسيت ان البحر غني واسماكه متنوعة ؟ انا سمكة من نوع غريب ، تتكلم وتشبه الانسان » .

قال الصياد متسائلا بفرح : « اتقول الصدق ام ما زلت تمزح ؟! » .

فأجبت دون تردد : « سؤالك ساذج ، فما الذي يرغمني على الكذب ؟! » .

فلم يفه الصياد بكلمة ، وحملني الى بيته وهو يلهث متعبا ، وهناك تولت زوجه تقطيعي بالسكين الى قطع مختلفة الحجوم ، ووضعتها في مقلاة ملأى بزيت يغلي ، فلم أصرخ متوجعا أو مستغيثا ، وبقيت في المقلاة حتى نضجت ،عندئذ ابتدأ أولاد الصياد يأكلونني بنهم ، فغمرتني البهجة ، ولكني حزنت بعد قليل لان الاولاد قالوا بتذمر وسخط ان لحمي سيىء الطعم على الرغم من انهم استمروا في أكلي .

وازداد حزني عندما تنبهت الى اني في يوم تال لا بد عائد الى جوف الارض ، وسأضطر آنذاك الى العيش في الاماكن المظلمة القذرة حتى يتاح لي يوما رؤية الشمس في جذور شجرة أو وردة .

الملك

الخطر

حدق مولانا الملك الى الرجل العجوز النحيف المتقوس الظهر ، وقال له : « قيل انك عالم تطمح الى ان تعرض على انظارنا ما اخترعت ، فهات ما عندك » .

قال الرجل العجوز بصوت هادىء لا يخلو من فرح خفي : « سأعرض على مولاي أفضل ما اخترعت » .

واخرج من جيبه كرة زرقاء اللون ، وقال فخورا : « هذا هو اختراعي » .

قال الملك بفضول : « ما هذا ؟ » .

قال العجوز : « كرة من المطاط مجوفة وقد أطلقت عليها اسم الطابة » .

قال الملك متسائلا : « وما الفائدة منها ؟ » .

قال العجوز : « انا اخترعتها كي يلعب بها الاطفال » .

فقطب الملك جبينه ، وقال : « وكيف سيلعب بها الاطفال ؟ » .

فابتسم العجوز ابتسامة مزهوة ماكرة ، ورمى الطابة بقوة على الارض ، فتواثبت وحدها مرات عديدة ، وبدت كعصفور طائش ينطنط مرحا .

نهض رجل ذو لحية بيضاء طويلة ، وصاح بصوت متهدج غاضب : « الدين يا مولاي في خطر » .

وأشار بسبابته الى الطابة صارخا : « ابليس مختبىء في جوفها وهو الذي يحركها » .

فتعالت توا أصوات الوزراء والاعوان مؤيدة ، لاعنة ابليس ، وحملقت الاعين الى الطابة التي استقرت على الارض دون حركة .

الشتاء

اعلن صناع السرر الاضراب عن العمل مطالبين بزيادة اجورهم .

وحين نمي النبأ الى الملك ، لم يغضب انما ابتسم بحنو ، وقال متسائلا : « من اي شيء تصنع السرر ؟ » .

فقيل له بأنها تصنع من خشب الاشجار ، فابتسم الملك ثانية ، وأمر الاشجار بأن تنبت سررا ، غير انها لم تطع الامر الملكي ، فاستاء الملك ، وحكم على الاشجار بالموت عطشا .

وفرح الملك اشد الفرح اذ ألفى الاشجار موشكة على الهلاك اثر منع الماء عنها ، ولكن فرحه ما لبث أن توارى يوم اقبل الشتاء .

السجون الخاوية

حظي المدير العام للسجون الملكية بلقاء مولانا الملك ، وانباه بصوت خاشع ان السجون امتلأت بالسجناء ولم تعد تتسع لمزيد ، ورجا بناء سجون جديدة .

غضب الملك ، وصاح : « ماذا تقول ؟ ألا تعلم ان بناء سجون جديدة يحتاج الى أموال طائلة ؟ وهل نسيت ان ما بحوزتي من اموال لا يجوز انفاقها الا في سبيل صالح الرعية ؟ » .

فتمتم المدير العام بصوت ضارع : « مولاي ... » .

فقاطعه الملك صارخا بنزق : « أسكت » .

سكت المدير العام للسجون الملكية ، وسكت أهل المملكة ، وانتظروا ما سيحدث مرتعشين لهفة وذعرا .

قال الملك : « الملك الصالح لا يحق له تبديد مال الرعية » .

واضاف موجها السؤال الى المدير العام : « هل يأكل السجناء كل يوم ؟ » .

— « مرة واحدة فقط » .

— « ومن يدفع ثمن طعامهم ؟ الرعية طبعا . هذا تبذير لمال الرعية وخطأ ينبغي اصلاحه فورا » .

ونفذ في الحال الامر الملكي ، فأعدم السجناء كافة ، واصبحت بعدئذ السجون الملكية خاوية تتسع لسجناء جدد.

حين يسكر الفقراء

استولى الضجر على الملك ، فتنكر في ثياب الفقراء ، وانطلق يجوب في طرقات المدينة ، حتى بلغ الازقة التي يحيا فيها الفقراء ، وهناك استرعى انتباهه ناس يتحلقون حول رجل سكير يرتدي ملابس عتيقة مهترئة ، ويترنح يمنة ويسرة وهو يصيح : « انا الملك ، فمن له مطلب يرجو الفوز به فليتقدم ويتكلم » .

فدنا من السكير كهل وضع يديه على بطنه ، وقال بلهجة متباكية : « سأموت جوعا ولا أملك ما اشتري به رغيف خبز » .

فخلع السكير فردة حذائه ، وقدمها للكهل وهو يقول : « خذ .. ها انذا أمنحك نصف مملكتي » .

فضجّ الناس بالضحك . ورجع الملك الى القصر وقد فارقه ضجره ، واصدر امرا يحظر على الفقراء شرب الخمرة.

الانتصار

تنبه الملك يوما الى ان ما في خزائنه من ذهبٍ وفضة قد تناقص ، فاغتم ، وطلب من وزيره النصح ، فقال الوزير دون تفكير : « سنفرض ضريبة جديدة » .

فهز الملك رأسه موافقا ، وكلف وزيره بتنفيذ ما اقترح.

وابتدأ الجباة يطوفون في المدن والقرى وبرفقتهم رجال الشرطة ، يرغمون الناس على دفع الضريبة الجديدة ، ومن لا يدفع ، يهان ويضرب ويسجن .

واتى يوم نفد فيه صبر الناس ، وانفجر غضبهم ، فساروا في حشد ضخم قاصدين القصر الملكي واصواتهم تصعد قوية ساخطة على الظلم .

ولما علم الملك بما حدث ، سمح لوفد يمثل المتظاهرين بمقابلته ، وانصت باهتمام لما قاله اعضاء الوفد من كلام كئيب

مؤثر عن الجوع والسجون والضريبة والوزير الظالم ، واعرب عن دهشته واستنكاره لما سمع ، وقال بصوت متهدج خجل : « كيف سألقى ربي يوم القيامة ؟ اتظلم رعيتي دون ان اعلم .. انا الذي كرس حياته لخدمة المعوزين والمساكين واليتامى والارامل ؟! » .

ونهض واقفا ، واعلن بصوت صارم طرد الوزير من منصبه ومصادرة ما يملك من قصور وأموال عقابا له على جوره واحتراما لارادة الرعية .

غادر الوفد القصر الملكي ، وابلغ الناس الناقمين بما جرى ، فتصايحوا فرحين شاكرين للملك مؤازرته للعدل والحق ، غير ان الجباة في اليوم التالي تابعوا طوافهم على البيوت والدكاكين .

مغامرتي الاخيرة

مشيت كثيرا . وعندما تعبت ، دخلت مطعما ، وتصنعت البحث عن صديق ، وكانت المناضد مثقلة بصحون الطعام ، ومحاطة بأفواه دائبة الحركة .

سألت الجرسون بصوت متعجرف : « ألم يأت الاستاذ أمجد ؟ » .

قال الجرسون : « أمجد ؟!.. » .

قلت : « أمجد العباس . لا بد انك تعرفه . هو مدير بنك . يتغدى لديكم كل يوم » .

تردد الجرسون ، ولكن تردده لم يستمر سوى لحظة خاطفة ثم تحول الى فخر واعتداد بالمطعم الذي يعمل فيه ويؤمه مدراء بنوك للغداء ، فقال : « لم يأت بعد . لا بد انه سيأتي بعد قليل » .

نظرت الى ساعة معصمي ، وقلت : « لا لا . ما دام لم يأت حتى الآن فلا بد انه اضطر لحضور اجتماع طارىء » .

وغادرت المطعم بخطى متمهلة وأنا اقول لمعدتي بقسوة : « اياك والتفوه بكلمة تذمر واحدة ، فأنا لم أرغمك على أن تكوني معدتي » .

قالت معدتي : « ارحم من في الارض يرحمك من في السمـــاء » .

تذكرت في تلك اللحظة السماء التي نسيتها منذ أيام، فنظرت اليها ، وكانت زرقاء صافية ، فتخيلت توا امرأة شعرها أزرق وعيناها خضراوان ولحمهـــا أسود ووردة حمراء تزين شعرها .

صاحت معدتي : « ما ألذ اللحم المشوي ! » .

فبادرت الى تأنيبها ، وحضضتها عـــلى التقشف ، واتجهت نحو بقالية صغيرة ، وكان صاحبها رجل عجوز ، فطلبت منه بيعي بيضتين ، ورجوتـــه أن يختارهما كبيرتي الحجم ، فقال لي وهو يتسلم ثمنهما من يدي : « ستأخـذ بيضتين لا مثيل لهما » .

ثم اضاف متسائلا بلهجة لم أعرف ما اذا كانت جادة أم ساخرة : « هل اضعهما في كيس ؟! » .

قلت : « لا .. لا .. » .

وتناولت البيضتين ، ووضعت واحـــدة في جيبي اليمين ، والثانية في جيبي اليسار ، وسرت نحو البيت فرحا بهما ، ولم تكف أصابعي عن لمسهما بحنو .

وما أن دخلت البيت حتى هرعت الى المطبخ ، واحضرت صحنا ، وامسكت بكل يد بيضة ثم ضربت الواحدة بالاخرى، فكسرت واحدة منهما ، وخرج من جوفها ما يشبه صوصـا

أبيض اللون ، فقلت بنزق : « غشني البائع . سالعن اجداده جدا جدا » .

وتجمدت مذهولا اذ ابتدأ ما خيل الي انه صوص يكبر حتى صار رجلا أبيض الثياب ، ذا جناحين ، فطغى عـلي الرعب ، وافلتت يدي البيضة الثانية ، وسقطت أرضـا ، وتحطمت ، فرمقتها آسفا متحسرا ، فاذا هي ايضـا يخرج منها صوص أبيض ، وكبر بسرعة وصار كرفيقـــه رجلا ذا جناحين ، فتصنعت الشجاعة ، وقلت : « ما هذا المزاح ؟! من انتما ؟! » .

قال أحد الرجلين : « انا منكر .. » .

وأشار الى زميله ، وقال : « وهذا نكير » .

ثم أردف قائلا بثقة وزهو : « لا بد انك سمعت عنـا الكثير . نحن الملاكان اللذان نزور الميت في أول ليلة يقضيها في القبر ونحاسبه على ما فعل عندما كان حيا » .

قلت : « لماذا جئتما الي ؟ أنا لست ميتا ، وهذا البيت ليس قبرا ، وفي مطلع كل شهر ادفع لصاحبه أجرا يستنفد معظم دخلي » .

فتبادل منكر ونكير النظرات الحائرة ، فازداد استيائي، وصحت بهما : « ألا تصدقان انـي لست بميت ؟! اذا كنتما لا تصدقان فسأستخدم يدي للاقناع » .

قال منكر بصوت مضطرب : « لا تزعل . ما جرى مجرد خطأ غير مقصود . ونحن نعتذر .. » .

قال نكير : « ونعتذر بحرارة » .

واتجه الاثنان نحو باب المطبخ ، فاعترضت طريقهمـــا متسائلا بغيظ : « الى أين ؟ » .

قال منكر : « هناك عمل كثير بانتظارنا » .
قلت : « وثمن البيضتين التالفتين من سيدفعه ؟! » .
قال منكر : « نحن نرغب في اصلاح الخطأ ولكن . . . »
فقلت مقاطعا : « المسألة بسيطة . ادفعا لي ثمن البيضتين » .
قال منكر رافعا ذراعيه الى اعلى : « فتشنا . جيوبنا فارغة تماما » .
قلت : « اذن لن ادعكما تخرجان . هل سأظل دون طعام بسبب خطأ لست مسؤولا عنه ولا علاقة لي به ؟! » .
قال نكير : « كن عاقلا . لا مال معنا » .
قال منكر : « ولكننا حين نحاسبك يوم تموت سنتغاضى عن عدد لا بأس به من سيئاتك » .
ففكرت قليلا ، ثم قلت لهما : « وعد رجال ؟! » .
فاصطفقت اجنحتهما وكأنها تحتج ، فسارعت الى القول : « أقصد وعد ملائكة » .
فهزا راسيهما بالايجاب وهما يبتسمان ، فابتعدت آنئذ عن الباب ، وسمحت لهما بالخروج .

وما أن اصبحت وحيدا حتى عاودني الغضب والاحساس بأني قد خدعت ، فقلت بصوت مرتفع مهدد : « سألعن أبا ذلك البقال الغشاش المحتال ! سأذهب اليه واهدم دكانه فوق راسه » .

وغادرت البيت راكضا نحو دكان البقال العجوز ، ولما بلغتها وجدت ناسا كثيرين متجمعين عند بابها ، يحدقون الى البقال الذي كان مستلقيا على الارض مغمض العينين دونما حراك . .

فسألت واحدا من المتفرجين : « ما به ؟ » .
فقال : « كان المسكين واقفا يضحك . وفجأة وقع على الارض ومات » .

فاضطربت واحترت ولم أعلم ماذا أفعل . وبعد لحظات جاءت سيارة اسعاف بيضاء اللون ، ووقفت بالقرب من دكان البقال ، ونزل منها سائقها وبصحبته ممرض بثياب بيض ، وفتحا الباب الخلفي للسيارة ، وأخرجا منها نقالة ، وصرخا مطالبين الناس بالابتعاد ، فتفرق الناس قليلا . عندئذ وضع السائق والممرض النقالة على الارض ، وحملا البقال وهما يتحادثان بمرح ، والقيا به على النقالة ، ثم انحنيا وحملا النقالة وسارا نحو السيارة ، فاندفعت اليهما صارخا وقد تذكرت ما حلّ بي : « لن اسمح لكما بأخذه » .
فقال لي الممرض : « هس . لا داعي الى الولولة . اذا كنت قريبه فرافقه » .
ودفعا النقالة بحركة سريعة الى جوف السيارة ، وصعدا الى مكانيهما في مقدمة السيارة ، فلم اجد مفرا من ان اقفز الى داخل السيارة .
وسارت السيارة بسرعة ، وبوقها يطلق صوتا يشق لها طريقا سهلا وسط الشوارع المزدحمة بالناس والسيارات .
لكزت البقال العجوز ، وقلت له : « يا محتال . . يا نصاب ! اتبيعني بيضا مغشوشا ؟ ألا تخجل ؟ » .
لم يجاوب البقال ، فقلت له : « انا أعرف انك تصنعت الموت لتهرب مني ولكنك جهلت في يد من وقعت . انت مسكين . اسمع . لن اتركك حتى ولو اضطررت الى النزول

معك الى القبر . ادفع لي ثمن البيضتين دون لف ودوران والا نتفت شعر لحيتك شعرة شعرة » .

عندئذ فتح البقال عينيه ، وقال لي بغيظ : « انت فعلا ولد محروم من التربية العائلية المحترمة . اهكذا تكلم الموتى ؟ للموت حرمة ويجب ان تراعى » .

قلت له : « تابع وعظك تابع . انا لا استجدي ولا أطلب صدقة . انا أطالب بحقي » .

قال البقال : « طالب بما تشاء . أصرخ ومزق ثيابك . أنا ميت . واذا تنبه السائق والمرض الى انك تحدثني اخذاك فورا الى مستشفى المجانين » .

قلت : « أريد حقي ولن أتنازل عنه ولو حدث زلزال » .

فأغمض البقال عينيه ، وقال : « تكلم كما تشاء . أنا ميت والموتى لا يتكلمون » .

فشتمته فترة طويلة ، ولكنه لم يأبه لي ، وظل صامتا اصفر اللحم ، فاضطررت الى السكوت حين بحّ صوتي .

وتنبهت الى اني موشك على الاختناق ، فالسيارة ضيقة وسقفها منخفض ، وكنت اتنفس بصعوبة ، ودهشت لان السيارة لم تبلغ المستشفى على الرغم من انها سارت مسافة طويلة جدا .

صرخت بالسائق والمرض طالبا منهما ايقاف السيارة ، ولكنهما لم يلتفتا اليّ ، وظلت السيارة تجتاز الشارع تلو الشارع وهي تسير بأقصى سرعة ، ففتحت بابها مزمعا أن اقذف بجسدي منها ، ولكني جبنت ، ووجدت نفسي بعد قليل أسحب البقال عن النقالة ، فلا يقاوم ، وأطوح به الى خارج السيارة ، ثم أستلقي على النقالة وانا اتنهد بارتياح ،

وأحسست بالغضب والاعياء يزولان عني رويدا رويدا ، ولم البث ان استسلمت للنوم بينما السيارة لا تزال منطلقة في الشوارع مطلقة من بوقها ولولة مستمرة .

ولما افقت من نومي بعد زمن ما ، فوجئت بأني في مكان مظلم ، فحاولت النهوض ، فأخفقت محاولتي .

وفجأة سطع نور قوي منبعث من مصباح كهربائي مسدد نحوي . وسمعت صوتا هازئا يقول لي : « ها نحن ذا قد تلاقينا بسرعة » .

وخيل اليّ اني قد سمعت ذلك الصوت من قبل . وسمعت صوتا ثانيا يقول : « انها فرصة جميلة تتاح لنا لنرحب به ترحيبا ينسيه أمه » .

فاشتد تعجبي لان الصوت الثاني سبق لي ايضا ان سمعته .

قال صاحب الصوت الاول : « يبدو انه ضعيف الذاكرة ونسينا ! » .

وسمعت وقع أقدام ، واقترب مني صاحبا الصوتين ، فاذا هما منكر ونكير ، وكانا يحملان سياطا وثيابهما سود ، وأعينهما صارمة قاسية .

أردت الكلام ، فأخفقت . قال منكر : « اتعرفُ ماذا سنفعل بك ؟! سنظل نضربك حتى نمزق لحمك قطعا صغيرة تحيا فيها الديدان وتأكلك على مهل وما يتبقى منك ستأتي الجرذان وتلتهمه » .

حاولت التكلم وتذكيرهما بوعدهما ، فلم أستطع ، وقد لاحظا محاولتي ، فضحكا ببهجة ، وأدنى منكر يده المطبقة الاصابع من نور المصباح ، وفتحها ، فتدلت منها

قطعة لحم تقطر دما ، وقال لي : « عرفت ما هذه ؟! انهـــا لسانك وقد قطعناه كي لا تثرثر ويصاب راسانا بالصداع » .

فأغمضت عيني ، وغرزت اظـــافري فـــي التراب ، وتعالى صراخي متحشرجا مستغيثا ، فلم يأبه لي منكر ونكير، وقدما الي أوراقا كثيرة قائلين : « هذه الاوراق مكتوبـــة بخطك وتتضمن اقرارك بكل ما فعلته من سيئات ، فهيـــا وقعها والا ... » .

فبادرت الى توقيعها دونما تردد ، وانتظرت السياط برعب ، ولكن ضوء المصباح انطفأ فجـــأة ، وساد الصمت ، ولما تعودت عيناي الظلمة اكتشفت ان منكرا ونكيرا قد اختفيا فابتهجت ، ولكني بعد حين شعرت بالوحشة الى حد انـــي اجهشت بالبكاء بصوت عال ، ثم اضطررت الى السكـــوت خجلا لما تناهت الى سمعي اصوات متذمرة تطالب بحقهـــا في الراحة بعد الموت .

وبعد ايام زارني جرذ جائع ، واتفقنا معا على ان يأكل ساقي اليمنى لقاء أن يحضر لي راديو ترانزستور .

ولقد نفذ الجرذ الاتفاق ، واتيح لي أن أستمع الـــى الاغاني ونشرات الاخبار بينما كان الجرذ يأكل ساقي متمهلا ويتلمظ بتلذذ قائلا لي بين الفينة والفينة انه لم يخدع .

وبعد أيام اخرى ، ابتدات افكر في صفقة ثانية أتخلى فيها عن ساقي اليسرى لقاء الحصول على تلفزيون صغير .

فهرست